العنوان:	نحو علم ممارسة اجتماعي : بنية سوسيولوجيا بورديو ومنطقها
المصدر:	فصول
الناشر:	الهيئة المصرية العامة للكتاب
المؤلف الرئيسي:	فاكان، لويك ج. د.
مؤلفين آخرين:	حسان، أحمد، ت. 2022 م.(مترجم)
المجلد/العدد:	ع 60
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2002
الشهر:	خريف
الصفحات:	177 - 216
رقم MD:	525559
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	السوسيولوجيا الإنعكاسية، العلم الاجتماعي، بيير بورديو
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/525559

© 2026 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA
فاكان، لويك ج. د.، و حسان، أحمد. (2002). نحو علم ممارسة اجتماعي: بنية سوسيولوجيا بورديو ومنطقها.فصول، ع 60، 177 - 216. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/525559

إسلوب MLA
فاكان، لويك ج. د.، و أحمد حسان. "نحو علم ممارسة اجتماعي: بنية سوسيولوجيا بورديو ومنطقها."فصولع 60 (2002): 177 - 216. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/525559

© 2026 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

نحو علم ممارسة اجتماعى: بنية سوسيولوجيا بورديو ومنطقها

لويك ج . د . فاكان

Loic J.D. Wacquant

ت: أحمد حسان

هذا المقال هو القسم الأول من كتاب: "دعوة إلى السوسيولوجيا الانعكاسية An Invitation to reflexive sociology ـ تأليف بيير بورديو ولويك فاكان. ونشرته Polity Press عام ١٩٩٢. ويمثل المقال مدخلاً للكتاب كله بينما يمثل القسم الثانى حوارًا مستفيضاً بين بورديو وفاكان حول مختلف جوانب فكر بورديو وذلك كجزء من ورشة عمل أقامتها جامعة شيكاجو حول أعمال بورديو. ويمثل القسم الثالث توجيهات بورديو للدارسين معه فى ورشة عمل باريس حول ممارسة السوسيولوجيا الانعكاسية. (المترجم)

"الإمساك بالصعوبة العميقة هو الأمر الصعب. لأنها بإدراكها قرب السطح تظل ببساطة نفس الصعوبة التى كانتها. يجب انتزاعها من جذورها؛ ويتضمن هذا أن نبدأ فى التفكير بطريقة جديدة. والتحول حاسم بقدر التحول، مثلا، من طريقة التفكير الخيميائية إلى طريقة التفكير الكيميائية. طريقة التفكير الجديدة هى ما يصعب ترسيخه، وفور أن تترسخ طريقة التفكير الجديدة؛ تختفى المشكلات القديمة؛ وفى الحقيقة، يصبح من الصعب إستعادتها. لأنها تتمشى مع طريقتنا فى التعبير عن أنفسنا، وإذا كسونا أنفسنا بشكل جديد من التعبير، فإننا ننبذ المشكلات القديمة مع الرداء القديم".

لودفيج فتجنشتين Vermischte Bemerkungen

برز العملُ الواسع النطاق الذى أنتجه بيير بورديو خلال العقود الثلاثة الماضية بوصفه واحداً من أكثر مجموعات النظرية الاجتماعية والبحث الاجتماعى خيالاً وخصوبةً فى حقبة ما بعد الحرب. وبعد فترة كمون طويلة، أخذ تأثيره يتزايد بشدةٍ ويتسع باستمرار ـ عبر التخصصات، من الأنثروبولوجيا، والسوسيولوجيا، والتربيةٍ إلى التاريخ، واللغويات، والعلم السياسى، والفلسفة، وعلم الجمال، والدراسات الأدبية. وجغرافياً من جيران فرنسا الأوربيين إلى أوربا الشرقية، والدول الاسكندنافية، وآسيا، وأمريكا اللاتينية، والولايات المتحدة[1]. ويُوجِّه عمل Oeuvre[2] بورديو ـ شبه الموسوعى ـ تحدِّياً متعدد الجوانب للتقسيمات الراهنة ولأنماط التفكير المقبولة فى العلم الاجتماعى بفضل تجاهله التام لحدود التخصصات، وبفضل المدى الإستثنائى لاتساع ميادين البحث المتخصص التى يعبُرها (من دراسة الفلاحين، والفن، والبطالة، والتعليم، والقانون، والعلم، والأدب إلى تحليل القرابة، والطبقات، والدين، والسياسة، والرياضة، واللغة، والإسكان، والمثقفين، والدولة)، وبفضل قدرته على المزج بين تنويعةٍ من الأساليب السوسيولوجية، من التقارير الإثنوجرافية المرهِقة إلى النماذج الإحصائية، إلى الحجج الميتا نظرية والفلسفية المجرَّدة.

إلاّ أن الطابع المقلق لمشروع بورديو ينبع بشكل أعمق من محاولته الدائبة للجمع بين عددٍ من التناقضات الراسخة التى تمزق العلم الاجتماعى، ومِن بينها التضاد الذى يبدو غير قابل للحل بين نمط المعرفة الذاتى ونمط المعرفة الموضوعى، والفصلُ بين تحليل ما هو رمزى وتحليلٌ ما هو مادى، والطلاق المستمر بين النظرية والبحث (Bourdieu, 1973c, 1977a, 1999a). وقاد هذا الجهد بورديو إلى نبذ تعارضين ثنائيين آخرين احتلا مؤخراً موقعاً مركزياً فى المنتدى النظرى، هما تعارض البنية ودور الفاعل agency من جهة، وتعارض التحليل المجهرى والتحليل الكلى من

جهـة أخـرى، وذلك عن طريق شحذ منظومةٍ من الأدوات المفهومية والمنهجية القادرة على تذويب هـذه التميـيزات ذاتهـا[٣]. وغـافلاً عـن تقلـبات الموضـة الثقافـية. دافع بورديو بثباتٍ عن إمكانية **اقتصـاد سياسـى موحَّـد للممارسة**، وللسلطة الرمزية على وجه الخصوص، يلحم فعليًا المقاربتين الفنومنولوجية والبنيوية فى نمطٍ متكامل، ومتماسكٍ معرفياً من البحث الاجتماعى له صلاحية عامة ـ فى **أنثروبولوجيا** Anthropologie ً بالمعنى الكانطى للكلمة، لكنها **أنثروبولوجيا** بالغة التميز من حيث أنها تضم على نحو صريح نشاطات المحلل الذى يقدم التقارير النظرية عن ممارسات الآخرين(Bourdieu 1982a & 1988a) .

لكـن، وبشـكل متناقض، فإن هذا العمل البالغ العمومية والنسقية ـ فى مداه ومقاصده ـ قد جرى إدراكهُ وتمثُّلهُ نمطيًا على هيئة "نتُفٍ وأجزاء". أما تحذير جراهام ووليامز (Graham and Williams (1980 : 209) مـن أن "الاسـتيعاب الاجتزائى والجزئى لما يمثِّل جسماً ثرياً وموحَّدًا مـن الـنظرية والعمـل الامـبيريقى المتصـل بها عبر مدىً من المجالات يمكن أن يؤدى إلى خطر إساءة قراءة النظرية بدرجة خطيرة" فقد اتضح أنه تحذيرٌ مُتبصِّرٌ. وإذا كان عددٌ مختارٌ من مفاهيمه (مـثل مفهـوم رأس المال الثقافى) قد استُخدم على نطاق واسع، وعلى نحو مثمر عادة، من جانب عـلماء الاجـتماع الأمريكـيين العـاملين فى ميادين بحثٍ أو تنظيرٍ محددةٍ[٤]، فإن عمل بورديو **فى كليَّـته** in globo مـا زال يـنال سوء الفهـم عـلى نطـاق واسـع ً وما زال اقتصاده الكلى ومنطقه الداخـلى مـراوغين. تشـهد عـلى ذلـك التـنويعة المحـيِّرة للتفسـيرات، والانـتقادات التى تستبعد بعضـها، وردود الفعل المتناقضة التى يثيرها، كما يشهد عليه التفتيتُ والبترُ اللذان رافقا استيراده عبر الأطلنطى.

هكـذا، ولكـى نبسِّـط بدرجـة كـبيرة؛ فـإن اسـتيعاب كـتابات بورديـو فـى العـالم الـناطق بالإنجليزية قد تقدّم حتى الآن استنادًا إلى ثلاث نقاط تقاطع رئيسية، ترتبط كلٌ واحدةٍ منها بأحد كتبه الأساسية[٥]؛ فأخصـائيو التربـية يلـتفون حـول **إعـادة الإنـتاج فـى التربـية، والمجتمع، والـثقافة**؛ ويركز الأنثروبولوجيون على دراسات بورديو الإثنوجرافية للجزائر، وعلى عرض نظرية الهابيـتوس والـرأسمال الرمـزى المتضـمن فـى: **موجـز لـنظريةٍ فـى الممارسـة**. بيـنما يتمسـك سوسـيولوجيو الـثقافة، وعـلم الجمـال، والطـبقات بكـتاب **التميُّز** (Bourdieu and Passeron 1979, Bourdieu 1977a, 1984a) وبشـكل نمطـى تجهل كل جماعة من المفسرين الجماعات الأخـرى، بحيـث أن قلـةً هـى التى تبيَّنت الروابط العضوية، النظريةٍ والجوهرية، التى تربط بين استقصاءات بورديو الواسعة المدى في هذه الميادين وفى غيرها. ونتيجةً لذلك، فإنه على الرغم من فـورة الترجمـات الـتى جرت مؤخرا، والأدب الفرعى الذى ازدهر حول كتاباته ـ والذى صار الآن ضافيًا وسريع الانتشار ـ فإن بورديو يظل بمثابة لغزٍ ثقافى.

مـن هـنا، فإنـنى ـ مـن بـاب التمهـيد للجسم الرئيسى للكتاب ـ أقترح أن أخطِّط بضربات فرشـاةٍ عريضةً الأطروحات والمقاصد المحورية التى تمنحُ جهدَ بورديو وحدتهُ وقوة دفعه الفائقتين. وأقـول عـلى الفـور أن بورديـو، عـلى أسـاس أنطولوجـيا سوسيولوجية غير ديكارتية ترفضُ فصلَ الموضـوع عـن الـذات، القصـدَ عـن السـبب، الماديـة عـن التمثيل الرمزى، يسعى إلى التغلب على الاخـتزال الموهِن للسوسيولوجيا إمّا إلى فيزياء موضوعيةٍ للبنيات المادية وإمّا إلى فنومنولوجيا بنائيةٍ لأشـكال الإدراك وذلـك عـن طـريق بنـيوية توليدية قادرة على الجمع بين الاثنين. وهو يفعل ذلك لـيس بـأن يطـوِّر بشـكل نسـقى نظـرية **بالمعنى الضيق** Stricto Sensu بل **منهجا** سوسيولوجيا يتمـثل أساسًـا فـى طـريقةٍ لطرح المشكلات، فى منظمةٍ مُقتَصِدَةٍ من الأدوات والإجراءات المفهومية لبـناء الموضـوعات ولنقل المعرفة المُلتَقطَة فى أحد ميادين الاستقصاء إلى ميدان آخر[٦]. "برغم أهمية الموضـوع الـنوعى [لهـذا] البحـث [أو ذاك] فإنه أقل أهمية فى الحقيقة . من المنهج الذى طُبِّق

عليه والذى يمكن تطبيقه على ما لانهاية له من الموضوعات المختلفة" (Bourdieu & Saint Martin 1982: 50)[٧] لأنه منقوشٌ فى بنيات هابيتوس[*] علمى طويل الأمد وقابلٍ للنقل[٨].

يرد هنا تحذيران. أولاً، ثمة نوعٌ من التناقض، أو على الأقل من التوتر الشديد، بين عمل بورديو ونمط العرض "الفوتوغرافى" الذى تبنّيته فيما يلى: فالأولُ عملٌ فى تقدُّم متصل؛ إذ أن بيير بورديو يقوم بلا نهاية بمراجعة ومعاودة الرجوع إلى نفس العقدة الجوردية من الأسئلة، والموضوعات، والمواقع، بينما يتفتح نمط تفكيره الارتجاعى واللولبى عبر الزمن وعبر الفضاء التحليلى[٩]. وعلى الجانب الآخر، فإن التقنية الخطيَّة للعرض المستخدمة فيما يلى تميل إلى "تجميد" هذه الحركة وذلك بإقامة تزامن مصطنع بين صياغات تُناظر مراحل مختلفةٍ من تطور بورديو الذهنى ومن ثم تُبرز درجات متفاوتة من التطوير النظرى. وبرغم أن المقاصد وخطوط الضعف الرئيسية لفكر بورديو قد أُرسيت على نحو راسخ فى وقت مبكر يرجع إلى منتصف الستينيات، فمازالت هناك إزاحات، وانعطافات، وانقطاعات ذات دلالة فى عمله سيتم التعليق عليها هنا بينما لا تنال الدينامية الداخلية لبنيته النظرية التأكيد المناسب[١٠].

ثانياً: إن الإشارة إلى التعارضات، والتوازيات، أو علاقات القرابة بين بورديو والمواقف البارزة فى حقل علم الاجتماع البريطانى والأمريكى قد تشجع - عن غير قصدٍ - نفس نوعٍ القراءات المتعجلة والاختزالية التى عادة ما أعاقت استيراده إلى هذا الحقل الأخير (راجع Wacquant 1992). إن جدل الألفة والإغراب المتضمن فى "ترجمة" النتاجات الثقافية خارج حدود مجالاتها القومية لـه مخاطرة. فثمة خطٌ رفيع بين الإستيعاب القسرى والتناظرات الكاشفة، ثمة تبادلٌ حسّاس بين الوضوح والسهولة من جهة، والأمانة والدقة فى الشكل، والمضمون، وتطور النسب من جهة أخرى. وكقاعدةٍ، فقد فضلت الجانب الأول على الثانى، موقنًا بأن القارىء سيُبقى فى ذهنه أن دلالة بورديو تكمن فى **الحركة** الفعلية لممارسته العلمية، أكثر مما تكمن فى التقرير التزامنى الذى يمكن أن يقدّمه عنها أى شارحٍ، مهما بلغت معرفته وبراعته.

١- ما وراء التعارض بين الفيزياء الاجتماعية والفنومنولوجيا الاجتماعية:

إن مهمة السوسيولوجيا، طبقاً لبيير بورديو (7 : 1989 a)، هى "كشف أعمق البنيات الدفينة لمختلف العوالم الاجتماعية التى تُشكل الكون الاجتماعى، وكذلك (الآليات) التى تميل إلى ضمان إعادة إنتاج هذه البنيات أو تغييرها". وخصوصية هذا الكون هى أن بنياته تحيا، كما هى الحال، "حياة مزدوجة"[١١]. فهى توجد مرتين: فى "الموضوعية من الطبقة الأولى" التى تتمثل فى **توزيع** الموارد **المادية** ووسائل تملك السلع والقيم النادرة اجتماعيًا (أنواع رأس المال، بلغة بورديو التقنية)؛ وفى "الموضوعية من الطبقة الثانية"، على هيئة أنساق **التصنيف**، المخططات الذهنية والجسدية التى تعمل كدعامات **رمزية** للنشاط العملى - السلوك، والأفكار، والمشاعر، والأحكام - للفاعلين الاجتماعيين. الحقائق الاجتماعية هى موضوعاتٌ، هى - أيضًا - موضوعٌ للمعرفة ضمن نطاق الواقع ذاته لأن الكائنات البشرية تضفى معنى على العالم الذى يصنعها[١٢].

إن علمًا للمجتمع مفهومًا على هذا النحو بوصفه "نسقًا" ذا بعدين "لعلاقات السلطة وعلاقات المعنى بين الجماعات والطبقات"[١٣] لابد له بالضرورة أن يُنتج **قراءة مزدوجة**. أو - إذا شئنا المزيد من الدقة - لابد له أن يصنع منظومةً من العدسات التحليلية مزدوجة البؤرة تستفيد من المزايا المعرفية لكل قراءة بينما تتجنب مثالب القراءتين. القراءة الأولى تتناول المجتمع على طريقة فيزياء اجتماعية: بوصفه بنيةً موضوعية، مُدركةً من الخارج، يمكن ملاحظة تمفصلاتها ماديًا، وقياسها، ووضع خريطةٍ لها بشكل مستقل عن تمثيلات من يعيشون فيها. وقوة وجهة النظر الموضوعية أو "البنيوية" هذه (التى يُجسدها دوركهايم فى الانتحار Suicide وكان يمثلها فى فرنسا - عندما وضع بورديو لأول مرة الخطوط العريضة لأطروحات نظريته المحورية - لغويات

---

[*] habitus أو مصطلح التطبع، واحد من مصطلحين نعتهما بورديو فى كتاب قواعد الفن، راجع فصول العدد (٥٨). (التحرير).

سوسير، وبنيوية ليفى ـ شتراوس، وبشكل ثانوى ماركسية ألتوسير) تكمن فى هدمها لـ "وهم شفافية العالم الاجتماعى"[١٤]. فقطيعتها مع إدراكات الفهم المشترك تمكنّها من كشف "العلاقات المحدَّدة" التى يدخل فيها الرجال والنساء بالضرورة لكى "ينتجوا وجودهم الاجتماعى" (ماركس). بفضل أدوات الإحصاء، والوصف الإثنوجرافى، أو وضع النماذج الشكلية، يمكن للمراقب الخارجى أن يفك شفرة "النوتة الموسيقية غير المكتوبة التى تُنظِّمُ طبقًا لها أفعالُ الفاعلين، الذين يعتقد كل واحدٍ منهم أنه يرتجل نغمته الخاصة" (Bourdieu 1980b : 89) وأن يؤكد الانتظامات الموضوعية التى يطيعونها.

الخطر الرئيسى لوجهة النظر الموضوعية هو أنها تميلُ، نظراً لافتقارها إلى مبدأ لتوليد هذه الانتظامات، إلى الانزلاق من كونها نموذجًا لتصبح واقعًا ـ إلى تشييء البنيات التى تبنيها عن طريق معاملتها على أنها كياناتٍ مستقلةٍ تتمتعُ بقدرة "الفعل" على طريقة الفاعلين التاريخيين. إن النزعة الموضوعية، بعجزها عن إدراك الممارسة إلاّ على نحو سلبى، على أنها مجرد **تنفيذٍ** للنموذج الذى يُقيمُه المحلل، ينتهى بها الأمر إلى أن تُسقط على عقول الفاعلين رؤية (مدرسية) لممارستهم لم تستطع، على نحو متناقض، أن تكشفها إلاّ لأنها طرحت جانبًا بشكل منهجى الخبرة التى لدى الفاعلين عن هذه الممارسة[١٥]. إنها بذلك تُدمِّرُ جزءًا من الواقع الذى تزعُمُ أنها تُدركُهُ فى نفس الحركة التى تلتقطه بها. وإذا تم دفع النزعة الموضوعية إلى نهاية حدودها، فإنها لايمَكن أن تنتج سوى ذاتٍ زائفة ersatz، وأن تصوِّرَ الأفراد أو الجماعات على أنهم الدعامات السلبية لقوى تُحققُ منطقها المستقل على نحوٍ ميكانيكى.

وحتى لا يسقط علمٌ مادى للمجتمع فى هذا الفخ الاختزالى، فإن عليه الإقرار بأن وعى وتفسيرات الفاعلين هى مُكون أساسى من مكونات مجمل واقع العالم الاجتماعى. صحيح حقا أن للمجتمع بنية موضوعية؛ لكن لا يقل عن ذلك صحة أنه مركب كذلك بشكل حاسم من "تمثيل وإرادة" [Darstellung und Wille]، حسب التعبير الشهير لشوبنهاور. ومن المهم أن يكون لدى الأفراد معرفة عملية بالعالم وأن يستثمروا هذه المعرفة العملية فى نشاطهم المعتاد. "على خلاف العلم الطبيعى، لا يمكن لأنثروبولوجيا كليةٍ أن تقتصر على بناءٍ للعلاقات الموضوعية لأن خبرة المعانى هى جزءٌ لايتجزأ من المعنى الكلى للخبرة"[١٦] (Bourdieu et al. 1965:20).

وجهة النظر الذاتية أو "البنائية" (التى يمثلها بشكل مفرط سارتر فى **الوجود والعدم** وتمثلها اليوم على أفضل نحو الإثنو ـ منهجية فى تنويعتها الثقافية وكذلك بعض اتجاهات نظرية الاختيار ـ العقلى فى نمطها العقلانى) هى التى تُعنى بهذه "الموضوعية من الطبقة الثانية". وعلى نقيض النزعة الموضوعية البنيوية، فإنها تؤكد أن الواقع الاجتماعى هو "تحقق مشروط متصل" مؤدين اجتماعيين أكفاء يبنون عالمهم الاجتماعى باستمرار عن طريق "الممارسات البارعة المنظمة للحياة اليومية" (Garfinkel 1967:11). ومن خلال عدسة هذه الفنومنولوجيا الاجتماعية، يظهر المجتمع على أنه الناتج الناشىء عن قرارات، وأفعال، وإدراكات أفراد واعين، منتبهين، يبدو لهم العالم على أنه مألوف وذو معنى على نحو مباشر. وتكمن قيمتها فى إقرارها بالدور الذى تلعبه المعرفة الدنيوية، والمعنى الذاتى، والكفاءة العملية فى الإنتاج المستمر للمجتمع؛ وهى تمنح مكان الصدارة لدور الفاعل و"للنسق المتفق عليه اجتماعيا للتنميطات والارتباطات" التى يمنح من خلالها الأشخاص معنى "لعالم ـ الحياة" الذى يعيشونه (Schutz 1970).

لكن فنومنولوجيا لم تُبن من جديد للحياة الاجتماعية تعانى، وفق بورديو، من عيبين رئيسيين على الأقل. أولاً، أن إدراك البنيات الاجتماعية على أنها مجرد مجموع للاستراتيجيات وأفعال التصنيف الفردية[١٧] يجعل من المستحيل تعليل مرونتها وكذلك التشكلات الموضوعية، البازغة، التى تديمها هذه الاستراتيجيات أو تتحداها. كذلك لايمكن لهذا النوع من الهامشية الاجتماعية أن يفسّر لماذا وطبقا لأى مبادىء إنتاج عمل الإنتاج الاجتماعى للواقع نفسه.

"إذا كـــان جيدًا أن نتذكر، ضد رؤى ميكانيكية معينة للفعل، أن الفاعلين الاجتماعيين يبنون الواقع الاجـــتماعى، فـــرديًا وكذلـــك جماعـــيًا، فلابد أن نحذر حتى لا ننسى، مثلما يفعل التفاعليون والإثنو ــ منهجيـــون عـــادةً، أنهم لم يبنوا المقولات التى ينفذونها فى عمل البناء هذا"
(Bourdieu 1989 a : 47).

إن علمًـــا كلـــيًا للمجتمع لابد أن ينبذ كلاً من البنيوية الميكانيكية التى تجعل الفاعلين "فى إجازة"، والفـــردية الغائية التى لا تعترف بالناس إلا فى الشكل المبتور لـــ"أحمق ثقافى، مفرط الاجتماعية"[١٨] أو تحـــت قـــناع التجســـدات الجديـــدة المعقدة بدرجة أو أخرى للإنسان الاقتصادى homo-oeconomicus. الموضـــوعية والذاتـــية، الميكانيكية والغرضية، الضرورة البنيوية ودور الفاعل الفردى كلها تعارضات زائفـــة. فكـــل حـــد من هذه المتناقضات الثنائية يدعم الآخر؛ وكلها تتواطأ لتعتيم الحقيقة الأنثروبولوجية للمارسة الإنسانية[١٩]. ولتجاوز هذه الثنائيات، فإن بورديو يحيل ما يعمل بوصفه "فرضية العالم" (Pepper 1942) ما يبدو أنه نماذج تناحرية، إلى **لحظات** لشكل من التحليل يستهدف إعادة التقاط الواقع المزدوج باطنيا للعالم الاجتماعى.

وعلـــم الممارســـة الاجتماعى[٢٠] الناتج ينسج معا مقاربة "بنيوية" ومقاربة "بنائية"[٢١]. إننا، أولاً، نـــزيح جانـــبا التمثـــيلات الشائعة لنبنى البنيات الموضوعية (فضاءات **المواقع**)، توزيع الموارد الفعالة اجتماعـــيًا الـــتى تحدد القيود الخارجية التى تثقل على التفاعلات والتمثيلات. ونعيد، ثانياً، إدخال خبرة الفاعليـــن المباشـــرة، المعاشـــة لكى نفسر مقولات الإدراك والتقييم (**الاستعدادات**) التى تبنى فعلهم من الداخل.

ولابـــد مـــن التشـــديد على أن لحظتى التحليل ليستا متساويتين، رغم أنهما ضروريتان على قدم المساواة: إذ تمنح الأولوية المعرفية للقطعية الموضوعية على الفهم الذاتى. وتطبيق مبدأ دوركهايم الأول "للمـــنهج السوســـيولوجى"،ألا وهـــو الـــرفض المنهجى للتصورات المسبقة[٢٢]، لابد أن يأتى قبل تحليل الإدراك العملـــى للعالم من وجهة النظر الذاتية. لأن وجهات نظر الفاعلين ستتنوع بانتظام حسب النقطة التى يحـــتلونها فى الفضاء الاجتماعى الموضوعى (Bourdieu 1984a, 1989e)[٢٣].

٢ ــ صراعات التصنيف وجدل البنيات الاجتماعية والعقلية

إن علمـــا حقيقـــيًا للمارسة الإنسانية لايمكن أن يقنع بمجرد تركيب فنومنولوجيا فوق طوبولوجيا اجتماعـــية. فلابـــد لـــــه أيضًا أن يوضح المخططات الإدراكية والتقييمية التى يستثمرها الفاعلون فى حـــياتهم اليومية. من أين تأتى هذه المخططات (تعريفات الموقف، والتنميطات، والإجراءات التفسيرية)، وكيف ترتبط بالبنيات الخارجية للمجتمع؟ هنا نجد الفرضية الأساسية الثانية التى ترتكز عليها سوسيولوجيا بورديو (1989 a : 7):

هـــناك تـــناظر بيـــن البنـــيات الاجتماعية والبنيات العقلية، بين التقسيمات الموضوعية للعالم الاجـــتماعى ــ خصوصًـــا إلى مسيطرين وخاضعين فى المجالات المختلفة ــ ومبادىء الرؤية والتقسيم التى يطبقها الفاعلون عليها.

هـــذه، بالطبع، إعـــادة صياغة وتعميم للفـــكرة المحـــورية التى طـــرحها دوركهـــايم ومـــوس (١٩٦٣) عـــام ١٩٠٣ فـــى دراستهما الكلاسيكية، "بعض الأشكال البدائية للتصنيف". فى هذا المقال، جادل مؤســـــس الحولیـــة الســـوسيولوجية Année sociologique وابن أخته بأن الأنساق الإدراكـــية الـــتى تعمـــل فى المجتمعات البدائية مشتقّة من نسقها الاجتماعى: مقولات الفهم هى تمثـــيلات جماعـــية، والمخططات العقلية الكامنة منظومة على غرار البنية الاجتماعية للجماعة. يوسّـــع بورديـــو أطـــروحة دوركهـــايم حول "المركزية ــ الاجتماعية" لأنساق الفكر فى أربعة اتجاهات: أولاً ــ يجادل بأن التناظر بين البنيات الإدراكية والاجتماعية والملاحظ فى المجتمعات التقلـــيدية يســـرى كذلك فى المجتمعات المتقدمة، حيث يكون تناظرها ناتجاً فى أغلبه عن أداء أنظمة المدارس (Bourdieu 1967a)[٢٤]. ثانيا ــ حيث إن تحليل دوركهايم وموس يفتقر إلى آلية سببية قوية

للتحديد الاجتماعى للتصنيفات (Needham 1963: xxiv)، فيقترح بورديو أن التقسيمات الاجتماعية والمخططات العقلية متناظرتان بنيويًا لأنهما "مرتبطتان توليديًا": فالأخيرة ليست سوى تجسيد للأولى. فالتعرض التراكمى لشروط اجتماعية معينة يغرس فى الأفراد مجموعا من الاستعدادات طويلة الأمد والقابلة للنقل التى تحدث تمثلا داخليا لضرورات البيئة الاجتماعية الموجودة، وتنقش داخل الكيان العضوى منظومات القصور الذاتى والقيود التى يفرضها الواقع الخارجى. وإذا كانت بنيات الموضوعية من الطبقة الثانية (الهابيتوس) هى الطبعة المتجسدة من بنيات الموضوعية من الطبقة الأولى، فإن "تحليل البنيات الموضوعية ينطبق منطقيا على تحليل الاستعدادات الذاتية، ومن ثم يحطم التعارض الزائف الذى يقام عادة بين السوسيولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية" (Bourdieu and de Saint Martin 1982: 47)[٢٥]. والعلم الدقيق للمجتمع يجب أن يضم كلا من الانتظامات الموضوعية وعملية التمثل الداخلى للموضوعية والتى تتأسس بواسطتها مبادىء الرؤية والتقسيم (di) vision اللاواعية، وعبر الفردية، التى يدخلها الفاعلون فى ممارستهم.

ثالثًا ـ وهذه هى النقطة الأشد حسماً، يؤكد بورديو أن التناظر بين البنيات الاجتماعية والبنيات العقلية يحقق وظائف سياسية حاسمة. فالأنساق الرمزية ليست مجرد أدوات للمعرفة. بل إنها أيضًا **أدوات للسيطرة** (إيديولوجيات فى معجم ماركس وتبريرات لاهوتية theodicies فى معجم فيبر). وبوصفها عناصر فاعلة فى التكامل الإدراكى فإنها تحفز، بمنطقها ذاته، التكامل الاجتماعى لنظام تعسفى: "إن الحفاظ على النظام الاجتماعى يدعمه على نحو حاسم.. التآلف بين مقولات إدراك العالم الاجتماعى التى، بكونها متوافقة مع تقسيمات النظام القائم (ومن ثم، متوافقة مع مصالح أولئك الذين يسيطرون عليه) ومألوفة لكل العقول المبنية طبقا لتلك البنيات، تفرض نفسها بكل مظاهر الضرورة الموضوعية" (Bourdieu 1984a : 471 ، والترجمة معدلة؛ راجع كذلك ط 1971). إن المخططات التصنيفية المؤسسة اجتماعيا ـ التى نؤسس من خلالها المجتمع بشكل فاعل ـ تميل إلى أن تمثل البنيات التى انبثقت منها على أنها طبيعية وضرورية. وليس على أنها النواتج المشروطة تاريخيا لتوازن معين للقوى بين الطبقات، أو الجماعات "العرقية"، أو الجنسين[٢٦]. لكننا إذا سلمنا بأن الأنساق الرمزية هى نواتج اجتماعية تسهم فى صنع العالم، بأنها لاتعكس ببساطة العلاقات الاجتماعية بل تساعد على تأسيسها، حينئذ سيكون بإمكان المرء، ضمن حدود معينة، أن يغير العالم عن طريق تغيير تمثيله (Bourdieu 1980B, 1981a).

وينتج من هذا ـ وهذه هى الطريقة الرابعة التى يفترق بها بورديو عن الإشكاليات الدوركهايمية ـ أن أنساق التصنيف تمثل **رهانا فى الصراعات** التى تضع الأفراد والجماعات فى تعارض فى التعاملات الروتينية للحياة اليومية وكذلك فى التنافسات الشخصية والجماعية التى تجرى فى مجالات السياسة والإنتاج الثقافى. فى مجتمع منقسم طبقيًا، تكون التصنيفات الاجتماعية (مثل المنصب أو فئة الأجر) التى تنظم تمثيل المجموعات" ناتجة فى كل لحظة عن موضوع رهان فى علاقات القوة بين الطبقات" (Bourdieu and Boltanski 1981 : 149، الترجمة معدلة).

هكذا يضيف بورديو إلى تحليل دوركهايم البنيوى سوسيولوجيا **توليدية وسياسية** لتشكيل، أنساق التصنيف واختيارها، وفرضها البنيات الاجتماعية والبنيات الإدراكية مرتبطة خطابيًا وبنيويا، والتناظر القائم بينهما يقدم واحدة من أصلب دعامات السيطرة الاجتماعية. والطبقات والتجمعات الاجتماعية المتناحرة الأخرى منخرطة على الدوام فى صراع لغرض تعريف العالم الأكثر تلاؤما مع مصالحها الخاصة. إن سوسيولوجيا المعرفة أو سوسيولوجيا الأشكال الثقافية هى بالتالى eoipso سوسيولوجيا سياسية، أى ، سوسيولوجيا للسلطة الرمزية. وفى الحقيقة، يمكن تفسير مجمل عمل بورديو على أنه أنثروبولوجيا مادية للإسهام النوعى الذى تقدمه مختلف أشكال العنف الرمزى فى إعادة إنتاج وتغيير بنيات السيطرة.

٣- العلائقية المنهجية.

ضد كل أشكال الأحادية المنهجية التى تزعم تأكيد الأولوية الأنطولوجية للبنية أو الفاعل، للنسق أو المؤدى ، للمجموع أو الفرد، يؤكد بورديو **أسبقية العلاقات**. وفى رأيه أن تلك البدائل الثنائية تعكس إدراكا - للواقع الاجتماعى - وينتمى للفهم المشترك. لابد أن تخلص السوسيولوجيا نفسها منه. هذا الإدراك يكمن فى نفس اللغة التى نستخدمها، التى "هى أكثر ملاءمة للتعبير عن الأشياء أكثر من العلاقات عن الحالات أكثر من الصيرورات" (Bourdieu 1982 a : 35). ويصر نوربرت إلياس (1978a:113) - وهو مدافع عنيد آخر عن المفهوم العلائقى لما هو اجتماعى - على أن اللغة العادية تؤدى بنا إلى " إقامة تمييزات مفهومية غير مقصودة بين المؤدى ونشاطه، بين البنيات والصيرورات، أو بين الموضوعات والعلاقات" تمنعنا فعليا من التقاط منطق التلاحم الاجتماعى[٢٧]. هذا الميل اللغوى لتفضيل الجوهر على حساب العلاقات تدعمه حقيقة أن السوسيولوجيين يتنافسون دائما مع أخصائيين آخرين على تمثيل العالم الاجتماعى، وخصوصًا مع السياسيين وخبراء وسائل الإعلام، الذين لهم مصلحة منوطة بهم فى تفكير الفهم المشترك هذا. إن التعارض بين الفرد والمجتمع (وترجمته إلى التناقض بين الذاتية المنهجية والبنيوية) هو أحد تلك "القضايا الاعتقادية endoxic propositions" التى تعانى منها السوسيولوجيا إذ تجرى إثارتها من جديد باستمرار بواسطة السياسية والاجتماعية. (Bourdieu 1989 f). والعلم الاجتماعى ليس بحاجة إلى الاختيار بين هذين القطبين، لأن مادة الواقع الاجتماعى - واقع الفعل وكذلك واقع البنية، وتقاطعهما كتاريخ - تكمن فى العلاقات.

على هذا النحو يرفض بورديو كلا من النزعة الفردية المنهجية ومذهب الكل holism، وكذلك تساميهما الزائف فى "نزعة الموقفية المنهجية"[٢٨]. والمنظور العلائقى الذى يشكل محور رؤيته السوسيولوجية ليس جديدًا؛ إذ إنه جزء لايتجزأ من تقاليد بنيوية واسعة "متعددة العشائر ومتعددة الأشكال" أثمرت ثمارها فى سنوات ما بعد الحرب فى عمل بياجيه، وياكوبسون، وليفى - شتراوس، وبروديل، ويمكن تتبعها إلى الوراء إلى دوركهايم وماركس (Merton 1975 : 32)[٢٩]. وربما وجدنا أبلغ وأوضح تعبير عنها لدى كارل ماركس حين كتب فى الأسس Die Grundrisse (1971 : 77) يقول: "لايتكون المجتمع من أفراد؛ إنه يعبر عن محصلة الارتباطات والعلاقات التى يجد الأفراد أنفسهم فيها"[٣٠]. وما يميز بورديو هو الحماس والإصرار اللذان ينشر بهما ذلك المفهوم. كما تبين حقيقة أن كلا من مفهوميه المحوريين **الهابيتوس والمجال يحدد حزمة من العلاقات**. فالمجال يتكون من منظومة من العلاقات الموضوعية، التاريخية بين مواقع ترتكز على أشكال معينة من السلطة (أو رأس المال). بينما يتكون الهابيتوس من منظومة من العلاقات التاريخية "المخزونة" داخل الأجساد الفردية على شكل مخططات ذهنية وجسمانية للإدراك، والتقييم، والفعل.

على غرار فيليب أبرامز، ومايكل مان، وتشارلز تيلى، ينسف بورديو مقولة "المجتمع" الفارغة ويستبدلها بمقولتى المجال والفضاء الاجتماعى. وبالنسبة له، ليس المجتمع المتمايز كلا متجانسا ينتج تكامله عن وظائف نسقية، وثقافة مشتركة، ونزاعات متشابكة، أو عن سلطة عليا، بل مجموعة من ميادين "اللعب" المستقلة نسبيًا والتى لا يمكن ضمها تحت منطق مجتمعى كله سواء أكان منطق الرأسمالية، أو الحداثة، أو ما بعد الحداثة. وعلى شاكلة **نظم الحياة** Lebensordnungen لدى فيبر، "نظم - الحياة" الاقتصادية، والسياسية، والجمالية، والثقافية التى تنقسم إليها الحياة الاجتماعية فى ظل الرأسمالية الحديثة (Gerth & Mills 1946: 331 - 59)، فإن كل مجال يحدد قيمه الخاصة ويملك مبادئه المنظمة الخاصة. هذه المبادىء تحدد نطاق فضاء مبيّن اجتماعيا يصارع فيه الفاعلون، اعتمادا على الموقع الذى يحتلونه فى ذلك الفضاء. إما لتغيير أو للحفاظ على حدوده وشكله. وهناك خاصيتان محوريتان بالنسبة لهذا التعريف البليغ. أولاً، أن أى مجال هو نسق منظوم من القوى الموضوعية (على طريقة مجال مغناطيسى)، هو **تشكل**

علائقى له جاذبية نوعية يفرضها على كل الموضوعات والفاعلين الذين يدخلون فيه. وعلى طريقة موشور، فإنه يسبب انكسار القوى الخارجية وفقاً لبنيته الداخلية:

> **التأثيرات التى تتولد داخل المجالات ليست لا محصلة الإضافة الخالصة لأفعال فوضوية، ولا الناتج المتكامل لخطةٍ منسقة.. فبنية اللعبة، وليس مجرد تأثير بسيط للجمع الميكانيكى، هى التى تكمن فى أساس التجاوز، الذى تكتشفه حالات انقلاب المقاصد، حالات التأثير الموضوعى والجماعى للأفعال المتراكمة**[٣١].

إن أى مجال هو فى آن واحد **فضاء نزاع ومنافسة**، والتشابه ـ هنا ـ هو مع ميدان المعركة، الذى يتبارى فيه المشاركون فى تأسيس احتكار لأنواع رأس المال الفعالة فيه ـ السلطة الثقافية فى المجال الفنى، والسلطة العلمية فى المجال العلمى، والسلطة الكهنوتية فى المجال الدينى. وهلم جرا ـ وسلطة تقرير التراتب و"أسعار التحويل" بين كل أشكال النفوذ فى مجال السلطة[٣٢]. وخلال مسار هذه الصراعات، يصبح نفس شكل وتقسيمات المجال موضوعًا محورياً للرهان؛ لأن تغيير التوزيع والوزن النسبى لأشكال رأس المال يعادل تعديل بنية المجال. وهذا يمنح أى مجال ديناميةً تاريخية ومرونة تفلت من الحتمية المتصلبة للبنيوية الكلاسيكية. وعلى سبيل المثال، فإن بورديو (89 : 1990b)، فى دراسته حول التطبيق المحلى لسياسة إسكان الحكومة الفرنسية، خلال السبعينات، يبين أنه حتى "اللعبة البيروقراطية"، أى المنطق التنظيمى المتصلب ظاهريا للبيروقراطيات العامة، يسمح بدرجة ملحوظة من عدم التحدد والتفاعل الاستراتيجي. وهو يؤكد أن أى مجال "يقدم نفسه على أنه بنية من الاحتمالات ـ احتمالات الجوائز، والمكاسب، والأرباح، أو العقوبات ـ لكنه يتضمن دائما قدرا من عدم التحدد.. وحتى فى عالم القواعد واللوائح بامتياز، يكون اللعب بالقاعدة جزءا لايتجزأ من قاعدة اللعب!!

لماذا تكون الحياة الاجتماعية ـ إذًا ـ بهذا الانتظام وهذه القابلية للتنبؤ؟ إذا كانت البنيات الخارجية لا تقيد الفعل ميكانيكيا، فما الذى يجعله منظوما إذًا؟ يقدم مفهوم الهابيتوس جزءا من الإجابة. فالهابيتوس هو **آلية بنينة** تعمل من داخل الفاعلين، رغم أنه ليس فرديا بشكل ضيق ولا محددا بذاته للسلوك تماما. الهابيتوس، بعبارات بورديو (1977a: 72, 95)، هو "مبدأ مولد للاستراتيجية يمكن الفاعلين من التوافق مع المواقف غير المتوقعة ودائمة التغير.. نسق من الاستعدادات الدائمة والقابلة للنقل يعمل فى كل لحظة، بدمجه للخبرات السابقة، كمصفوفة من الإدراكات، والتقييمات، والأفعال ويتيح إنجاز مهام لا نهائية التنوع"[٣٣]. وبوصفه نتيجة للتمثل الداخلى للبنيات الخارجية، يستجيب الهابيتوس لإلحاحات المجال بطريقة متماسكة ونسقية تقريبا. بوصفه المجموع وقد أصبح فرديا من خلال التجسد أو الفرد البيولوجى وقد "اكتسب الطابع الجمعى" من خلال التهيئة الاجتماعية، يشبه الهابيتوس "القصد فى الفعل" لدى سيرل (١٩٨٣: خصوصا الفصل ٣)[٣٤] أو "البنية العميقة" لدى تشومسكى، باستثناء أن هذه البنية العميقة، بديلاً عن كونها أحد الثوابت الأنثروبولوجية، فإنها مصفوفة توليدية مؤسسة تاريخيا، ومبررة مؤسسيا، ومن ثم متغيرة اجتماعيا. إنه أحد العناصر الفاعلة فى العقلانية، لكنها عقلانية عملية محايثة فى نسق تاريخى من العلاقات الاجتماعية ومن ثم متجاوزة للفرد. والاستراتيجيات التى "يديرها" نسقية، لكنها كذلك عشوائية حيث "يطلقها" الالتقاء مع مجال محدد. الهابيتوس خلاف، ابتكارى، لكن فى نطاق حدود بنياته، التى هى الترسب المتجسد للبنيات الاجتماعية التى أنتجته.

من هنا فإن كلا مفهومى الهابيتوس والمجال علائقيين بالمعنى الإضافى لكونهما يعملان بشكل كامل **فقط فى علاقة مع بعضهما**. والمجال ليس مجرد بنية عميقة، منظومة من "الأماكن الفارغة"، مثلما فى ماركسية ألتوسير، لكنه **فضاء للعب** لايوجد بوصفه كذلك إلا إلى المدى الذى يدخله لاعبون يؤمنون بالجوائز التى يقدمها ويسعون إليها بنشاط؛ ومن ثم، فإن نظرية كافية للمجال تتطلب نظرية للفاعلين الاجتماعيين:

ليس هناك فعل، وتاريخ، وإبقاء على، أو تغيير للبنيات إلا لأن هناك فاعلين، لكنهم فاعلون ليسوا عاملين وفعالين إلا لأنهم ليسوا مختزلين إلى ما يدرج عادة تحت مقولة الفرد ولأنهم، ككيانات عضوية مكتسبة للطابع الاجتماعي، مزودين بمجموعة من الاستعدادات التى تتضمن كلا من النزوع والقدرة على الدخول فى اللعبة ولعبها (Bourdieu 1989a: 59).

وبالعكس، فإن نظرية الهابيتوس تكون ناقصة بدون مقولة البنية التى تفسح المجال للارتجال المنظم للفاعلين. ولكى نفهم ما يتكون منه بالضبط هذا"الفن الاجتماعى" (موس) للارتجال، علينا أن نتحول إلى أنطولوجيا بورديو الاجتماعية.

٤ ـ المنطق الفضفاض للحس العملى

فلسفة بورديو لما هو اجتماعى هى فلسفة واحدية monist بمعنى أنها ترفض وضع حدود قاطعة بين الداخلى والخارجى، بين الوعى واللاوعى، بين الجسدى والخطابى. إنها تسعى إلى التقاط القصدية دون قصد، المعرفة دون قصد إدراك، إلى التقاط قبل التأملية، تحت مستوى الوعى، التى يكتسبها الفاعلون لعالمهم الاجتماعى عن طريق الانغماس الطويل الأمد فيه (وهذا هو السبب فى أن الرياضه تتمتع بتلك الجاذبية النظرية بالنسبة لبورديو؛ انظر، على سبيل المثال، 1988f) والتى تعرف الممارسة الاجتماعية الإنسانية بشكل مناسب. بالسير انتقائيا على هدى فنومنولوجيات هوسرل، وهايدجر، وميرلوربونتى، وكذلك على هدى فلسفة فتجنشتين الأخيرة، يرفض بورديو ثنائيات الأنطولوجيا الاجتماعية الديكارتية: بين الجسم والعقل، بين الفهم والحساسية، بين الذات والموضوع، بين الشىء فى ذاته En - Soi، والشىء لذاته Pour -soi ـ من أجل "العودة إلى الاجتماعى الذى نكون فى اتصال مباشر معه بمجرد حقيقة وجودنا، والذى نحمله معنا بلا انفصام قبل أى تشييء" (Merleau Ponty 1962 : 362). وهو يبنى بوجه خاص على فكرة ميرلو ـ بونتى حول **الجسمانية الداخلية للاتصال قبل الموضوعى بين الذات والعالم**؛ لكى يستعيد الجسد بوصفه مصدراً للقصدية العملية، بوصفه نبعاً للمعنى المتبادل بين الذوات والقائم على أساس المستوى قبل الموضوعى للخبرة. وسوسيولوجيه هى سوسيولوجيا بنيوية تضم فنومنولوجيا"للوحدة قبل ـ الإسنادية بين العالم وحياتنا"(Merleau Ponty 1962: 61)[٣٥] وذلك عن طريق معاملة الجسد المكتسب للطابع الاجتماعى، ليس كموضوع، بل كمستقر لقدرة توليدية، إبداعية، على الفهم، كحامل لشكل من "المعرفة الحركية" (Jackson 1983) يتمتع بقوة بنينة.

والعلاقة بين الفاعل الاجتماعى والعالم ليست علاقة بين ذات (أو وعى) وموضوع، بل علاقة "تواطؤ أنطولوجى"، أو "امتلاك" متبادل كما صاغها بورديو مؤخراً (10 a 1989) ـ بين الهابيتوس، بوصفه المبدأ المؤسِّس اجتماعيا للإدراك والتقييم، وبين العالم الذى يحدِّده. و"الحس العملى" يعمل عند المستوى قبل ـ الموضوعى اللاأطروحاتى؛ ويعبر عن هذه الحساسية الاجتماعية التى ترشدنا قبل موضعتنا للموضوعات بوصفها كذلك[٣٦]. وهو يؤسس العالم بوصفه ذا معنى عن طريق الاستباق العفوى لميوله المحايثة على طريقة لاعب الكرة الذى يتمتع "برؤية مجال" كبيرة، والذى ـ بينما هو مشتبك فى حرارة الفعل ـ يحدس فوريا تحركات خصومه وزملائه، ويتصرف ويستجيب بطريقة "ملهمة" دون أن يتمتع بميزة النظر إلى الوراء والحساب العقلى. ومثال ميرلو ـ بونتى (69 168 : 1963) عن لاعب الكرة، جدير بأن نورده هنا بإسهاب لأنه يعبر بوضوح شديد عن هذا "التماسك دون مفهوم" الذى يرشد التقاءنا السعيد بالعالم كلما كان هابيتوسنا متوافقا مع المجال الذى ننخرط فيه.

بالنسبة للاعب أثناء اللعب لايكون ملعب كرة القدم "موضوعا"، أى المصطلح المثالى الذى يمكن أن ينشأ عنه عدد لامتناه من وجهات النظر المنظورية ويظل متكافئا تحت تحولاته الظاهرية. إن خطوط قوة تتخلله ("خطوط اليارادات"؛ تلك التى تحدد "منطقة الجزاء") ويتمفصل إلى قطاعات (مثلاً، "ضربات الإرسال" بين المتبارين) تتطلب نمطاً معينا من

الفعل وتستهل وترشد الفعل كما لو كان اللاعب غير واعٍ بها. والملعب نفسه ليس مُعطىً بالنسبة لـه، لكنه حاضرٍ بوصفه الشرط المحايث لمقاصده العملية؛ يتوحد اللاعب معه ويحس باتجاه "الهدف" مثلاً، بصورة مباشرة مثلما يحس بالإحداثيات الرأسية والأفقية لجسمه ذاته. ولن يكون كافيا القول بأن الوعى يسكن هذا الوسط المحيط. ففى هذه اللحظة لايكون الوعى سوى جدل الوسط المحيط والفعل. وكل مناورة يقوم بها اللاعب تعدل طابع الملعب وتقيم خطوط قوة جديدة يتفتح فيها الفعل ويتحقق بدوره، معدلا الملعب الظاهرى من جديد[٣٧].

"الحس العملى **يدرك مسبقا**؛ إنه يقرأ فى الحالة الحاضرة الحالات المستقبلية الممكنة التى ينطوى عليها المجال. لأن الماضى، والحاضر، والمستقبل تتقاطع فى الهابيتوس وتتداخل مع بعضها. ويمكن فهم الهابيتوس على أنه "مواقف مترسبة" فعلية (Mallin 1979 : 12) مودعة داخل الجسم وتنتظر إعادة تنشيطها[٣٨]. لكن الاقتباس الوارد أعلاه مثير للاهتمام أيضا لأنه يكشف اختلافين حاسمين بين علم الممارسة لدى بورديو وبين نظرية السلوك لدى ميرلوربونتى؛ ففى الأخيرة، ليس ثمة لحظة موضوعية، و"ملعب" كرة القدم يظل شكلا ظاهريا خالصا، مدركا بشكل صارم من وجهة نظر الفاعل الذى يعمل[٣٩]. وهذا يعترض سبيل البحث فى العلاقة ذات الاتجاهين بين الإدراك الذاتى للاعب وبين التشكل والقواعد الموضوعية الكامنة للعبة التى يتم لعبها. كذلك، ومثلما كان الحال مع النزعة الموضوعية لدى دوركهايم، تعانى فلسفة ميرلور بونتى من عدم قدرتها على بناء صلة تحليلية صلبة بين البنيات الداخلية والخارجية، هنا بين حس اللعبة لدى اللاعب وبين الانتظام الفعلى للملعب.

وعلاوة على ذلك، فإن القواعد المقيدة التى يفرضها الحكم، فى كرة القدم، ليست هى موضوع الصراع، كذلك ليست حدود أرض الملعب هى موضوع التنافس بين الفريقين (أو بين اللاعبين والمتفرجين الذين قد يريدون دخول اللعبة). وباختصار، فإن ميرلور ـ بونتى صامت بصدد التولد الاجتماعى المزدوج لبنيات اللعب الذاتية والموضوعية.

ومن المهم أخيراً التأكيد على أن الخطوط التى يسير عليها الفعل المتولد عن الهابيتوس ليس لها، ولا يمكن أن يكون لها فى الحقيقة، الانتظام الدقيق للسلوك المستنبط من مبدأ معيارى أو قانونى. والسبب فى هذا راجع إلى أن "**الهابيتوس يتمشى مع الفضفاض والمبهم**. وبوصفه عفوية توليدية تؤكد نفسها فى المواجهة المرتجلة مع مواقف لا نهائية التجدد، فإنه يتبع **منطقا عمليا**. هو منطق الفضفاض التقريبى، الذى يحدد العلاقة المعتادة بالعالم". وبالتالى، يجب علينا الامتناع عن البحث فى نتاجات الهابيتوس عن منطق أكثر مما تضمنه فعلا: "فمنطق الممارسة منطقى إلى النقطة التى يكف فيها كون المرء منطقيًا عن كونه عمليا" (Bourdieu 1987a : 96)[٤٠]. من هنا، فإن الصعوبة الخاصة للسوسيولوجيا هى إنتاج علم دقيق لواقع غير دقيق، وفضفاض، وغائم. ولهذا السبب فإن من الأفضل لمفاهيمه أن تكون متعددة الأشكال، ولدنة، ومطواعة، بدل أن تكون محددة، ومعايرة، ومستخدمة بطريقة جامدة[٤١].

يتيح مفهوما الهابيتوس والمجال لبورديو أن ينبذ المشكلات الزائفة للعضوية الشخصية والقيد الاجتماعى، للحرية والضرورة، للاختيار والاضطرار، وأن ينحى جانبا البدائل المألوفة للفرد والبنية، للتحليل المصغر (Blumer, Coleman) والتحليل المكبر[٤٢] والتى تفرض أنطولوجيا مستقطبة، وثنائية: "ليس على المرء أن يختار بين البنية والفاعلين، بين المجال ـ الذى يصنع معنى الخصائص وقيمتها المتشيئة فى أشياء أو المتجسدة فى أشخاص ـ والفاعلين الذين يلعبون بخصائصهم فى فضاء اللعب المحدد على هذا النحو" (Bourdieu 1989a : 448)، أو بين المواقع فى فضاء الموارد والحوافز، والدوافع، و"المقاصد" المكتسبة للطابع الاجتماعى لمن يحتلون هذه المواقع.

ومثلما ينحى بورديو جانبا السجال بين العقلانية ـ المجهرية والوظيفية ـ الكلية؛ فإنه يرفض خيار الخضوع والمقاومة الذى كان يمثل تقليديا الإطار لمسألة الثقافات الخاضعة والذى يمنعنا، فى نظره، من الفهم الصحيح لممارسات ومواقف تعرف عادة بطبيعتها المنحرفة، المزدوجة داخليًا. إذا لم يكن لدى من وسيلة، لكى أقاوم، سوى أن أجعل نفس السمات ـ التى تسمنى بأننى خاضع ـ ملكا لى وأن أصيح بها عاليا (طبقا لنموذج "الأسود جميل")، على طريقة أبناء البروليتاريين الإنجليز الفخورين بأن يستبعدوا أنفسهم من المدرسة باسم مثال الذكورة الذى تحمله ثقافتهم الطبقية (Wills 1977)، فهل يكون ذلك مقاومة؟ ومن جهة أخرى، إذا عملت على محو كل ما يمكن أن يكشف عن أصولى، أو يوقعنى فى فخ موقعى الاجتماعى (لهجة، أو هيئة بدنية، أو علاقات عائلية)، فهل يجب عندئذ أن نتحدث عن خضوع؟ هذا، فى رأى بورديو، هو"تناقض لايقبل الحل" منقوش فى نفس منطق السيطرة الرمزية. "المقاومة يمكن أن تكون مستلبة والخضوع يمكن أن يكون محررا. هذا هو تناقض الخاضعين ولا مخرج منه" (Bourdieu 1987a: 184).

لكن بورديو لا يتوقف عند الإشارة إلى معاونة الخاضعين لاستبعادهم وإخضاعهم؛ فهو يشرح هذا التواطؤ بطريقة تتجنب النزعة السيكولوجية أو الجوهرية لـ"العبودية الطوعية" لدى لابواتييه. يتم تقديم حل اللغز بتحليل للتوليد التاريخى للاستعدادات التى توقع "الخاضعين" فى "الفخ"، لأنها بتناظرها مع البنيات الموضوعية للعالم والتى نشأت منها هذه الاستعدادات، تجعل أسس عدم التكافؤ غير مرئية ـ حرفيا ـ فى تعسفها.

> **إذا كان من المناسب أن نتذكر أن الخاضعين يسهمون دائما فى إخضاعهم هم أنفسهم، فمن الضرورى التذكير على الفور بأن الاستعدادات التى تنحو بهم إلى هذا التواطؤ هى كذلك الأثر، المتجسد، للسيطرة (: Bourdieu 1989a 12، ترجمتى والتشديد لى)**

وهكذا، فإن خضوع العمال، والنساء، والأقليات، وطلاب الجامعة لا يكون فى الأغلب تنازلا مقصودا أو واعيا للقوة الفظة للمديرين، والرجال، والبيض، والأساتذة؛ بل إنه يكمن، بالأحرى، فى التلاؤم اللاواعى بين هابيتوسهم والمجال الذى يعملون فيه. فهو مغروس بعمق داخل الجسد المكتسب للطابع الاجتماعى وفى الحقيقة؛ فإنه يعبر عن "التبدى الجسدى لعلاقات السيطرة الاجتماعية"(Bourdieu 1990l).

لابد أن يكون قد اتضح الآن أن أولئك الذين يفهمون اقتصاد الممارسة لدى بورديو على أنه نظرية معممة للحتمية الاقتصادية (مثلا، Jenkins 1982, Honneth, 1986, Caill 1987a, Miller 1989, Gartman 1991) أو، الأسوأ من ذلك، على أنه تنويعة من نظرية الاختيار العقلانى[٤٣]، هم ضحايا لإساءة قراءة مزدوجة لسوسيولوجياه. فهم، أولا، يدخلون فى مفهوم الاستراتيجية فكرتى القصدية والاستهداف الواعى، وبذلك ينقلون الفعل **المنسجم** مع، وربما **المتولد عن**، "مصالح" معينة إلى سلوك منظم عقليا وموجه قصديا صوب أهداف مدركة بوضوح[٤٤]. وهم، ثانيا، يضيقون مقولة المصلحة المتغيرة تاريخيا، والمفهومة على أنها اهتمام مؤسس اجتماعيا بـ، ورغبة فى لعب، ألعاب اجتماعية معطاة، إلى نزوع لا يتغير للسعى إلى مكسب اقتصادى أو مادى[٤٥]. هذا الاختزال المزدوج، القصدى النزعة والنفعى، يخفى الحركة التحليلية المتناقضة التى يجريها بورديو بواسطة الثالوث المفهومى للهابيتوس، ورأس المال، والمجال، والذى يتمثل فى **توسيع دائرة المصلحة بينما يضيق دائرة المنفعة والوعى.**

يتجشم بورديو العناء ليؤكد أن اقتصاد الممارسة ـ عنده ـ ليس قصدياً أو نفعيا. وكما جادلنا أعلاه، فإنه معارض عنيد لغائية فلسفات الوعى التى تحدد المنبع الرئيسى للفعل فى الاختيارات الإرادية للأفراد. إنه، بمصطلح الاستراتيجية، لا يشير إلى السعى القصدى والمخطط سلفا إلى أهداف محسوبة (كما يفعل كولمان [Coleman 1986])، بل إلى الاستنفار النشيط "لخطوط فعل" موجهة موضوعيا تتبع انتظامات معينة وتشكل منظومات متماسكة ومفهومة اجتماعيا، حتى إذا لم

تكن تتبع قواعد واعية أو تصوب باتجاه الأهداف المتعمدة التى يطرحها استراتيجى[٤٦]. أما مفهوم المصلحة ـ وهى مقولة شرع مؤخرا فى استبدالها بشكل متزايد بمقولة **التوهم** illusio ، وبشكل أحدث، بمقولة **الليبيدو** libido ؛ فيسعى بورديو إلى أن يحقق منه شيئين: أولاً، أن ينفصل عن الرؤية (السحرية) للفعل الاجتماعى التى تتمسك بالحدود المصطنعة بين السلوك الأداتى والسلوك التعبيرى أو المعيارى وترفض الاعتراف بالأشكال المتعددة للأرباح الخفية، اللامادية التى ترشد الفاعلين الذين يبدون "نزيهين". وثانيا ،يريد أن يوصّل فكرة أن الناس تحفزهم، وتدفعهم، حالة اختلاق __ داخلى in difference وينطلقون منها، كما تحركهم مثيرات ترسلها مجالات معينة ـ وليس غيرها؛ لأن كل مجال يملأ القنينة الفارغة للمصلحة بخمر مختلفة، فأكاديمى الطبقة المتوسطة الذى لم يدخل أبدا ناديا رياضيا فى حى جيتو ولم يشهد أبدا الشجارات فى ناد صغير لايمكنه ـ للوهلة الأولى ـ أن يدرك شهوة الملاكمة (Libido Pugilistica) التى تقود شبيبة أشباه البروليتاريا إلى أن يقدروا ويدخلوا بإراداتهم إلى مهنة الملاكمة المدمرة للذات. وعلى العكس، فإن واحدا ممن هجروا المدرسة العليا من قلب المدينة لايمكنه أن يفهم السبب وراء استثمار المثقف فى المساجلات الملغزة حول النظرية الاجتماعية، أو حماسه لآخر التجديدات فى الفن المفهومى؛ لأنه لم يتلقَ تربية اجتماعية تجعله يضفى على هذه الأشياء قيمة. إن الناس "مشغولون ـ مسبقا" Pre-occupied بمحصلات مستقبلية معينة منقوشة فى الحاضر لايصادفونها إلا بقدر ما يزودهم هابيتوسهم بالحساسية ويستنفرهم لإدراكها والسعى إليها. وهذه المحصلات يمكن أن تكون "نزيهة" تماما بالمعنى الشائع للكلمة، كما يمكن أن نرى بسهولة فى مجالات الإنتاج الثقافى، هذا "العالم الاقتصادى المعكوس" (Bourdieu 1983d, 1985d) حيث يجرى بشكل منهجى نزع القيمة عن الأفعال التى تستهدف الربح المادى وتتم معاقبتها سلبياً. وبعبارة أخرى، فإن:

> **القطيعة مع النزعة الاقتصادية من أجل وصف عالم الاقتصادات الممكنة تعنى الإفلات من الاختيار بين المصلحة الاقتصادية الضيقة والمادية تماما وبين النزاهة. تعنى أن نتيح لأنفسنا وسيلة تحقيق مبدأ السبب الكافى الذى يتطلب ألا يكون هناك فعل بدون مبرر وجود raison d tre ، أى، بدون مصلحة، أو، إذا شاء المرء، بدون استثمار فى لعبة وفى رهان، فى توهم، فى التزام.**
>
> **(1990a : 290 ، الترجمة معدلة)**

٥ ـ ضد النزعة النظرية والنزعة المنهجية : العلم الاجتماعى الكلى.

من هذا المفهوم العلائقى وضد ـ الديكارتى لموضوع بحث السوسيولوجيا؛ ينتج أن السوسيولوجيا لابد أن تكون **علمًا كليًا**. لابد لها أن تبنى "حقائق اجتماعية كلية" (Mauss)[٤٧] تحافظ على الوحدة الأساسية للممارسة الإنسانية عبر التمزيقات المشوهة للتخصصات، والميادين الامبيريقية، وتقنيات الملاحظة والتحليل. وهذا هو السبب وراء معارضة بورديو للتخصص العلمى السابق لأوانه، وللتقسيم المفصل للعمل الذى يستتبعه: فالهابيتوس يزود الممارسة بنسقية وارتباط داخلى يتجاوز هذه التقسيمات، والبنيات الاجتماعية؛ بالتالى تديم أو تغير نفسها **ككل**، بكل أبعادها فى آن واحد. وأفضل مانرى فيه ذلك، عندما ندرس استراتيجيات إعادة الإنتاج أو التغيير التى تطورها الجماعات للحفاظ على أو لتحسين موقعها فى بنية طبقية متغيرة (Bourdieu & Boltanski 1977; Bourdieu 1974a, 1978b, & 1984a: 99 168). فهذه الاستراتيجيات تشكل نسقا **قائما بذاته** Sui generis لايمكن التقاطه بوصفه كذلك ما لم يربط المرء منهجيا بين ميادين للحياة الاجتماعية تتناولها فى العادة علوم منفصلة بواسطة منهجيات متعارضة. وفى حالة الطبقة الحاكمة المدروسة فى La noblesse d Etat (نبالة الدولة، Bourdieu 1989a: 373 420)، تتضمن هذه الميادين الخصوبة، والتعليم، والوقاية من الأمراض، والاستثمار الاقتصادى ونقل الإرث، واستراتيجيات الاستثمار الاجتماعى (التى تشكل فيها استراتيجيات الزواج عنصرا محوريا) وأخيرا، استراتيجيات التبرير الاجتماعى Sociodicy التى تسعى إلى إقرار مشروعية سيطرتهم ومشروعية شكل رأس المال الذى تستند عليه. وعلى الرغم من كون هذه الاستراتيجيات

ليست نتاج قصد استراتيجى متعمد (وأقل من ذلك، نتاج مؤامرة جماعية)، فإنها تتمتع بعلاقات موضوعية للتتابع الزمنى، والاعتماد المتبادل بين الأجيال، والتضامن الوظيفى بحيث أن المعرفة الكلية الطابع هى وحدها التى يمكن أن توضح تماسكها الداخلى وتمفصلاتها الخارجية. وفور أن نتعرف على الوحدة الكامنة للاستراتيجيات الاجتماعية وندركها على أنها كلية دينامية، فإننا يمكن أن نتبين :

كم يمكن أن تكون مصطنعة تلك التعارضات المألوفة بين النظرية والبحث، بين المناهج الكمية والكيفية، بين التسجيل الإحصائى والملاحظة الإثنوجرافية، بين التقاط البنيات وبناء الأفراد. فليس لهذه البدائل من وظيفة سوى تقديم تبرير للتجريدات الفارغة والطنانة للنزعة النظرية والملاحظات الزائفة الصرامة للنزعة الوضعية أو، مثل التقسيمات بين الإقتصاديين، والأنثروبولوجيين، والمؤرخين، والسوسيولوجيين، إقرار مشروعية حدود الكفاءة: وهذا يعنى القول بأنها تعمل على طريقة رقابة اجتماعية، جديرة بأن تمنعنا عن التقاط صدق يكمن على وجه الدقة فى العلاقات بين ميادين الممارسة التى يتم على هذا النحو الفصل بينها تعسفيًا.

(Bourdieu and de Saint Martin 1978:7)

على ضوء هذا المفهوم، لا يكون من الصعب أن نرى السبب فى شجب بورديو لشكلى التعقيد المتعارضين، لكن المكملين لبعضها، اللذين يبتليان العلم الاجتماعى فى الوقت الراهن: ألا وهما "النزعة المنهجية"، و"النزعة النظرية". يمكن تعريف **النزعة المنهجية** بأنها الميل إلى فصل التأمل فى المناهج عن استخدامها الفعلى فى العمل العلمى وتعهد المنهج لذاته. ويرى بورديو فى "المنهجية"، المفهومة على أنها تخصص متميز مفصول عن التنفيذ اليومى للبحث، شكلا من أشكال **النزعة الأكاديمية** التى، بتجريدها (ab - trahere [يجرد باللاتينية] تعنى يفصل) بشكل زائف للمنهج عن الموضوع، تختزل مشكلة البناء النظرى لهذا الأخير إلى تلاعب تقنى بالمحددات الامبيريقية والملاحظات. وبنسيان أن "المنهجية ليست أداة الإدراك أو المعلم بالنسبة للعالم "بل" تلميذته على الدوام" (Schutz 1970:315)، فإن تلك الصنمية المنهجية محكوم عليها بأن تكسو موضوعات مبنية ـ سلفا برداء العلم وتخاطر بأن تسبب قصر النظر العلمى: إن "تطور تقنيات الملاحظة والبرهان يمكن، إذا لم تصاحبه مضاعفة للانتباه النظرى، أن تقودنا إلى أن نرى على نحو أفضل باستمرار أشياء أقل باستمرار " (Bourdieu et al. 1973:88)[٤٨]. وفى الحقيقة، فإنها يمكن أن تتحول إلى "فن للفن" أو، ما هو أسوأ، إلى إمبريالية منهجية، أى، إلى التعريف القسرى للموضوعات بواسطة تقنيات التحليل الموجودة ومنظومات المعطيات المتاحة (مثلا: Rossi 1989). تنقلنا المنهجية ـ إذن ـ إلى نظرية ضمنية للاجتماعى تجعل الباحثين يتصرفون على طريقة مخمور آخر الليل الذى ذكر به كابلان (Kaplan 1964) والذى، نتيجة لفقدانه مفاتيح بيته، يصر على البحث عنها تحت أقرب عامود نور لأن هذا هو المكان الذى يتمتع بأفضل إضاءة. ليس التطور التقنى للأدوات المنهجية هو ما ينتقده بورديو بل تهذيبها اللامبالى لتملأ الفراغ الذى يخلقه غياب الرؤية النظرية[٤٩].

تكمن أصول موقف بورديو إزاء المنهجية فى تدريبه العملى الأولى كأنثروبولوجى وكذلك سوسيولوجى. ففى وقت مبكر جدا فى مهنته، طور ألفة متزامنة وحميمة مع مناهج الإثنوجرافيا والتحليل الإحصائى. وقد امتزجت خبراته الميدانية الأولى كأنثروبولوجى علم نفسه إلى حد كبير مع تعاونه مع الإحصائيين من المعهد القومى للإحصاء والدراسات الإقتصادية INSEE فى الجزائر خلال الفترة ١٩٥٨ ـ ١٩٦٢ (وبعدها مع الإحصائيين الرياضيين من مدرسة "تحليل البيانات الفرنسية") لتكسبه نفورا متأصلا من الواحدية المنهجية أو النزعة الإطلاقية. هكذا يؤكد علنا "رفضه المطلق للرفض الطائفى لهذا المنهج للبحث أو ذاك". (Bourdieu 1989a: 10)[٥٠]. كذلك أقنعته خبرته بأن التنظيم العملى والقيام بجمع البيانات ـ أو إنتاج البيانات، إذا شئنا الدقة ـ مرتبطان بشكل وثيق بالبناء النظرى للموضوع بحيث لا يمكن اختزالها إلى مهام تقنية تترك

للمبتدئين المستأجرين، أو بيروقراطيات المسح، أو مساعدى البحث[٥١]. فالمراتبية التقليدية للمهام التى تكون مهنة العالم الاجتماعى ليست ـ سوى مراتبية **اجتماعية** متجذرة فى النهاية فى سلسلة من التعارضات المتناظرة التى تدعم بعضها بين المرتفع والمنخفض، بين العقل والجسم، بين العمل الذهنى والعمل البدنى، بين العالم الذى "يخلق" والتقنى الذى "يطبق" إجراءات روتينية. هذه المراتبية مفرغة من التبرير المعرفى ومن ثم لابد من نبذها.

لكن تعددية الطرح المنهجية التى يدعو إليها ويمارسها بورديو لا تعنى أن "كل شىء يصلح"، مثلما فى الفوضوية المعرفية (أو الدادائية) لدى شخص مثل فييرآبند، بل تعنى بالأحرى، ومثلما علمنا أوجست كونت منذ زمن طويل[٥٢]، أن مجموعة المناهج المستخدمة يجب أن تلائم المشكلة التى بين أيدينا ولابد من التأمل فيها باستمرار أثناء العمل In actu، فى نفس الحركة التى يتم فيها نقلها لتحل مسائل محددة. إن جوهر هجوم بورديو على "المنهجية" واضح: إذ لايمكن للمرء أن يفصل بناء الموضوع عن أدوات بناء الموضوع ونقدها.

ومثل المنهج، لا يجب فصل النظرية المفهومة فهما صحيحا عن عمل البحث الذى يغذيها والذى ترشده وتبنينه باستمرار. ومثلما يعيد الاعتبار إلى البعد العملى للممارسة بوصفه موضوعا للمعرفة، يرغب بورديو فى استعادة الجانب العملى للنظرية بوصفه نشاطا منتجا للمعرفة. وتقدم كتاباته شهادة ضافية على أنه ليس معاديا للعمل النظرى. لكن ما يقف ضده بثبات هو العمل النظرى المنجز لذاته، أو **مؤسسة** النظرية بوصفها ميدانا للخطاب منفصلا، مغلقا على ذاته، ويحيل إلى ذاته ـ ما دمغه كينيث بيرك (Burke 1989: 282) بأنه "اللوجولوجيا"، أى "الكلمات عن الكلمات". ليس لدى بورديو وقت لمثل هذا **التنظير المتباهى**، المتحرر من الارتباط بالقيود العملية وحقائق العمل الامبيريقى، ولا يبدى تعاطفا مع "تمزيق المفاهيم وإعادة ترتيبها بلا نهاية" (Mills 1959 : 23) مما يعرف الكثير من التنظير المعاصر، ناهيك عن "الميتا ـ تنظير"[٥٣]. وعلاقته بالمفاهيم هى علاقة براجماتية: فهو يتعامل معها بوصفها "أطقم: أدوات" (فتجنشتين) الغرض منها مساعدته فى حل المشكلات. لكن هذه البراجماتية لا تفتح الباب للتوفيقية المفهومية المطلقة العنان (مثلما فى "التنظير التحليلى" الذى يدافع عنه جوناثان تيريز [(1987)]. لأنها تجد مستقرها فى، وتكتسب انضباطها من، المنظومة المحدودة من الأطروحات النظرية والهموم الجوهرية التى عرضناها فيما سبق.

قد يبدو بيير بورديو للكثيرين قاسياً دون مبرر فى نقده لما يسميه "النظرية التنظيرية" (انظر ما يلى، القسم ٢، الفصل ٥). وجزئياً، يعد هذا رد فعل لجو ثقافى قريب العهد اعتاد تقليديا أن يكافىء البراعة الفلسفية والنظرية بينما يربى مقاومة قوية للنزعة الامبيريقية (رغم أن التعارض بين "أوربا التنظيرية" و"الولايات المتحدة الامبيريقية" اليوم يرجع إلى توليفة مدرسية من النماذج النمطية والتأخر الثقافى أكثر مما يرجع إلى المقارنة المطلعة). وفى الولايات المتحدة، حيث سادت "الوضعية الأداتية" دون منافس تقريبا منذ الأربعينات (Bryant 1985) وحيث كان التداخل بين السوسيولوجيا والفلسفة هشا على أحسن تقدير، يمكن "للمنظرين" أن يقوموا بوظيفة أكثر إيجابية إذا أجبروا المجال على الاعتراف بقطبه المقموع. إلا أن الإحياء والتطور المستقل ذاتيا للنظرية، خلال الأعوام الأخيرة (especially 89 93; Ritter 1990b Giddens & Turner 1987; Alexander 1988) قد زاد الفجوة بين المفكرين الخالصين وبين من يشار إليهم باستهزاء عادة "على الفهم" ماضغو الأرقام"[٥٤]. وكما يلاحظ سيكا (Sica 1989 : 227) فإن "الثقافتين متمرستان جيداً فى السوسيولوجيا ولا يبدو أن أيا منهما يمكن أن تتنازل عن أى مساحة، برغم الأمل الطقسى فى البحث المطلع نظريا والذى يسمع لأول مرة فى المدرسة الثانوية ويستمر حتى القبر"[٥٥].

وفى رأى بورديو أن نقاط ضعف النظرية الاجتماعية المعاصرة لاتنبع مما شخصه جيفرى إلكسندر على أنه "الفشل" فى تحقيق "عمومية قبل ـ افتراضية" و"تعدد أبعاد" بل من **تقسيم اجتماعى للعمل العلمى** يمزق، ويشيىء، ويجزىء لحظات عملية بناء الموضوع السوسيولوجى إلى

تخصصات منفصلة، ومن ثم يكافىء "الجسارة دون صرامة" للفلسفة الاجتماعية و"الصرامة دون خيال" للوضعية الامبيريقية المفرطة. وبينما يمكن لبورديو من ناحية المبدأ أن يؤيد قصدهم المعلن، فإنه يعتقد أن النظرية ليس لها أن تتوقع الكثير من مغامرات "المنطق النظرى" التى لا تقوم على أساس ممارسة بحثية عينية. ولفت الإنتباه إلى "مخاطر القراءة المركبة فى الحجج العلمية"، والتأكيد على "أهمية الفكر وتعدد الأبعاد على أعم مستوى قبل ـ افتراضى" للفعل والنظام، والإحتفاء " بالاستقلال الذاتى النسبى" للالتزامات الميتافيزيقية، والمنهجية، والإمبريقية (Alexander 1980 j 82, vol. 3:xvi) كلها أمور حسنة وطيبة. لكنها تظل تدريباً بلاغيا طالما لا تكون جزءا من تأمل فى الممارسة العلمية "الموجودة فعلا" يستهدف تغيير **تنظيمها الاجتماعى**[٥٦].

ومثل تعدديته المنهجية المنضبطة، فإن رفض بورديو للفصل بين النظرية والبحث يجد جذوره فى تشابك مساره الاجتماعى، وهابيتوسه العلمى الأولى، ووضع الأزمة الفريد الذى تمت فيه صياغة هذا الهابيتوس واختباره للمرة الأولى، وقد عمل وضع الأزمة هذا على مفاقمة حساسيته إزاء أشد العمليات العلمية أولية. ومتأملا فى دراساته الميدانية المبكرة فى الجزائر عند نهاية الخمسينات يوضح بورديو قائلا:

(in Honneth, Kocyba, and Schwibs 1986: 39، الترجمة معدلة):

> **أردت أن أكون نافعا لكى أتغلب على تأنيب ضميرى لكونى مجرد مراقب مشارك فى هذه الحرب المقرفة.. هذا الانضمام التعيس بدرجة أو أخرى إلى المجال الثقافى ربما كان هو السبب لنشاطاتى فى الجزائر. فلم أكن أستطيع أن أقنع بقراءة الصحف اليسارية أو توقيع الالتماسات؛ كان على أن أفعل شيئا كعالم.. لم أكن أستطيع الرضا بمجرد قراءة الكتب وزيارة المكتبات. فى وضع تاريخى فيه فى كل لحظة، فى كل بيان سياسى، فى كل نقاش، فى كل التماس، كان مجمل الواقع موضوع رهان، كان ضروريا بشكل مطلق أن أكون فى قلب الأحداث حتى أكون رأيى، مهما كان ذلك خطيرا ـ وقد كان خطيرا. أن أرى، أن أسجل، أن أصور صورا فوتوغرافية: لم أقبل أبدا الفصل بين البناء النظرى لموضوع البحث وبين منظومة الإجراءات العملية التى بدونها لا يمكن وجود معرفة حقيقية.**

أفعال السحر التكنولوجية والنزاع المفهومى على الألفاظ اللذان يخفيان الافتقار إلى بناء صارم للموضوع وتبنى مفاهيم الحس المشترك لا يفعلان الكثير من أجل التقدم "بالعلم **الامبيريقى للواقع** المتعين" الذى تحدث عنه فيبر (72 :1949). وفى الواقع، فإن الكبت المنهجى وصنمية المفاهيم يمكن، فيما وراء تخاصمهما، أن يتآمرا على العزوف المنظم عن جهد شرح المجتمع والتاريخ الموجودين[٥٧].

من المهم التأكيد على أن بورديو لا يدعو إلى المزيد من "التفاعل" بين النظرية والبحث على طريقة ميرتون. فبالنسبة لمؤلف **النظرية الاجتماعية والبنية الاجتماعية**"، ثمة حركة مرور ذات اتجاهين بين النظرية الاجتماعية والبحث الامبيريقى. فالمواد الامبيريقية المنظمة تساعد على تقدم النظرية الاجتماعية بفرض المهمة وبإتاحة فرصة التفسير بناء على خطوط عادة ما تكون غير متعمدة. والنظرية الاجتماعية، بدورها، تحدد المدى وتوسع القيمة التنبؤية للمعطيات الامبيريقية بالإشارة إلى الشروط التى تكون صالحة فيها" (Merton 1968: 279). هذه الصياغة تؤخذ أمرًا مفروغا منه، وتقبل بوصفها معطى لا جدال فيه للممارسة السوسيولوجية. "التفرقة العنصرية" العلمية بين المنظر والباحث الذى يقوم بالمسح، هذه التفرقة العنصرية المميزة للسوسيولوجيا الأمريكية فى حقبة ما بعد الحرب (والتى كان يجسدها، فى وقت كتابة ميرتون لهذا المقال، الشخصان البارزان بارسونز ولازار سفلد)[٥٨] والتى يدعمها التنظيم البيروقراطى الراهن للمؤسسة الأكاديمية ومكافأة الكفاءات المتخصصة[٥٩]. وبدلا من الفصل المستمر بين هذين القطبين، الذى لا يلطفه سوى التفاعل المكثف، يدعو بورديو إلى **اندماج** البناء النظرى وعمليات البحث العملى. إنه

لا يسعى إلى الربط بين العمل النظرى والامبيريقى بطريقة أوثق بل إلى **جعلهما يتمازجان مع بعضهما تماما**. وليست هذه الحجة دفاعا عن قضيته الخاصة Pro domo مصمما لكى يرفع كفاءة بورديو الخاصة إلى مرتبة المعيار الشامل للامتياز بل إنها، بالأحرى، إقرار بالبنية المحايثة للممارسة الاجتماعية العلمية "الموجودة فعلا" والتى، سواء شاءت الاعتراف بذلك أم أبت، تمزج باستمرار بين المفهوم والمدرك، بين التأمل والملاحظة[٦٠].

يشدد بورديو على أن كل فعل بحث هو فى الآن نفسه امبيريقى (إذ يواجه عالم الظواهر القابلة للملاحظة)، ونظرى (إذ يتضمن بالضرورة افتراضات حول البنية الكامنة للعلاقات التى تستهدف الملاحظات التقاطها). وحتى أدق عملية امبيريقية: اختيار مقياس للقياس، أو قرار تشفير، أو بناء مؤشر، أو إدراج بند فى استبيان ـ تتضمن اختيارات نظرية، واعية أو غير واعية، بينما لا يمكن توضيح أشد الألغاز المفهومية تجريداً توضيحا تاما بدون انخراط منظم فى الواقع الامبيريقي." من المؤكد أن النظرية سوف تحتفظ دوماً بدرجة من الأسبقية المعرفية لأن" المتجه الابستمولوجى" ، إذا تحدثنا مثل باشلار فى الروح العلمية الجديدة (4 : 1984)، يتجه" من العقل إلى الواقعى"[٦١]. لكن الإقرار بأولوية النظرية لاينطوى هنا على أى تناقض، حيث أن فهم بورديو للنظرية ذاتها ليس متمركزاً حول الكلمة، بل عملياً؛ فالنظرية ـ بالنسبة له ـ لا تكمن فى القضايا الخطابية بل فى الاستعدادات التوليدية للهابيتوس العلمى[٦٢].

٦. الانعكاسية المعرفية

إذا كان هناك سمه منفردة تجعل بورديو بارزاً فى مشهد النظرية الاجتماعية المعاصرة، فهذه السمه هى وسواسه المميز بالانعكاسية. فمنذ استقصاءاته المبكرة حول ممارسات الزواج فى القرية المعزولة بجبال البرانس ـ حيث نشأ (Bourdieu 1962b, 1962c) ـ وحتى مطاردته للإنسان الأكاديمى الغالى (Homo academicus gallicus Bourdieu, 1988a)، وهى القبيلة التى انضم إليها نتيجة لصعوده الاجتماعى، صوب بورديو باستمرار أدوات علمه إلى نفسه ـ ولو كان ذلك بطريقة لم يدركها الكثير من قرائها على الفور دائماً. فتحليله للمثقفين وللنظرة التشييئية للسوسيولوجيا، بوجه خاص، مثلهما مثل تشريحه اللغة بوصفها أداة وحلبة للسلطة الاجتماعية، تتضمن جميعها على نحو مباشر جداً، وترتكز بالتالى على تحليل ـ ذاته للسوسيولوجى بوصفه منتجاً ثقافياً ومتأملاً فى الشروط الاجتماعية ـ التاريخية لإمكان علم للمجتمع (Wacquant 1990 a).

إلا أن بورديو ليس المنظر الاجتماعى الأول أو الوحيد الذى يثير فكرة الانعكاسية. إذ يطفو فى الجو ـ فى الحقيقة ـ عدد غير قليل من المزاعم" بسوسيولوجيا انعكاسية"، وإذا ترك المصطلح دون مزيد من التحديد، فإنه يكون غامضاً إلى حد الخواء تقريباً. فماذا يترتب على إرتداد (re - flectere [يتأمل] تعنى: "ينكفىء إلى الوراء") العلم على نفسه؟ ما بؤرته؟ وكيف يمكن إجراؤه؟ ولأى أغراض؟ سأجادل بأن نوع بورديو من الانعكاسية، الذى يمكن تعريفه مؤقتاً بأنه إدراج نظرية فى الممارسة الثقافية بوصفها جزءًا متكاملاً وشرطاً ضروريًا لنظرية نقدية فى المجتمع، يختلف عن غيره من الأنواع بثلاث طرق حاسمة. أولا: أن هدفه الأول ليس هو المحلل الفرد بل **اللاوعى الاجتماعى والثقافى** الكامن فى الأدوات والعمليات التحليلية، ثانياً: أنه لابد أن يكون **مشروعا جماعيا** وليس عبئاً يحمله الأكاديمى المنفرد، وثالثا: أنه لا يسعى إلى مهاجمة **الأمن الابستمولوجى للسوسيولوجيا بل إلى تدعيمه** فبدلا من محاولة تدمير الموضوعية، تستهدف انعكاسية بورديو زيادة مدى المعرفة العلمية الاجتماعية وصلابتها، وهو هدف يضعها على طرفى نقيض مع أشكال الانعكاسية الفنومنولوجية، والنصية، وغيرها من أشكال الانعكاسية "ما بعد الحداثية" (Platt 1989, Woolgar 1988).

تتراوح مفاهيم الانعكاسية من المرجعية ـ الذاتية إلى الوعى ـ الذاتى إلى الدائرية التأسيسة للتقارير أو النصوص. فبلور Bloor 1976:5)، مثلا، يعادل الانعكاسية بالمرجعية الذاتية

التخصصية حين يكتب: " من ناحية المبدأ، يجب لمنظومات شرح [سوسيولوجيا المعرفة] أن تكون قابلة " للتطبيق على السوسيولوجيا ذاتها". وفى رأى بنيت بيرجر (Bennett Berger 1981,1991)، تحفز الانعكاسية الوعى الذاتى وتخدم فى إقامة مسافة للأدوار (بالمعنى الذى يقصده جوفمان)، بين الإثنوجرافى بوصفه عضوا فى المجتمع، و الإثنوجرافى بوصفه محللا. وذلك لمنع أى تركيز للطاقة النفسية Cathexis على الموضوع. أما برجر (222 : 1981) فإنه يعرف الانعاكسية، مستلهما كتاب ريزمان: **الزحام المستوحد**، بأنها "خطوة سيكولوجية أو اثنتان أبعد من التوجه الآخر وتولى الأدوار لأن اهتمامها المميز هو جعل تلك العمليات إشكالية. وهى تحاول أن تتوافق مع المرء بعواقب التوجه الآخر، وتولى الأدوار على نفسه [من أجل] الاقتراب من ذلك الحلم للعلم الاجتماعى: المراقب المتجرد تماما". وبالنسبة للإثنو - منهجيين (Garfinkel 1967, Cicourel 1947)، فإن الانعكاسية، مع المؤشراتية indexicality ، هى خاصية مؤسسة محورية للفعل الاجتماعى، هى "ظاهرة إشكالية" منسوجة فى نسيج النشاطات المنظمة للحياة اليومية. ويعنون بذلك أن الفعل الاجتماعى يجب أن يكون قابلا للتقرير؛ حيث أن الناس عموما - وبالضرورة - يستخدمون "اثنو - مناهج" لإعطاء معنى لممارسات الدورة اليومية، وأن التقارير والواقع، من ثم، مؤسس أحدهما للآخر بشكل متبادل[٦٤]. ويشير جيدنز. (Giddens 1984, 1987, 1990b)، بدوره، إلى الانعكاسية بكل المعانى الثلاثة وبثلاث مراجع: دور الفاعل، والعلم، والمجتمع. ويقال أن الذوات انعكاسية بقدر كونها "حيوانات حاملة للمفاهيم" تملك القدرة على "الاستدارة إلى" أفعالها الخاصة ومراقبتها. والعلم الاجتماعى انعكاسى بمعنى أن المعرفة التى يولدها "تحقن" ثانيا فى الواقع الذى تصفه[٦٥]. وأخيراً، يمكن القول أن المجتمع انعكاسى عندما يطور القدرة على السيطرة على وبرمجة تطوره الخاص (ما يضعه تورين تحت مقولة التاريخية)[٦٦]. والشىء الناقص فى كل هذه المفاهيم هو فكرة الانعكاسية بوصفها **شرطا وشكلا للعمل السوسيولوجى**، أى: بوصفها برنامجا ابستمولوجيا للعلم الاجتماعى - وهو يعمل - ونتيجة لذلك، بوصفها نظرية فى المثقفين بوصفهم مدبرين لشكل خاضع من السيطرة.

ويمكن إبراز تميز هذا البرنامج بالمقابلة بين مفهوم بورديو للانعاكسية ومفهوم ألفين جولدنر (راجع كذلك Friedrichs 1970و O Neill 1972 للوقوف على مفاهيم مشابهة). فبالنسبة لمؤلف: **الأزمة القادمة للسوسيولوجيا الغربية** (Gouldner 1970 : 483)، تبدأ السوسيولوجيا الانعكاسية من "الافتراض البدائى جدا القائل بأن النظرية تصنعها ممارسة البشر فى كليتهم ويشكلها الحيوات التى يعيشونها". ومطالبة "بالإحالة المرجعية الذاتية، تركز على "معرفة السوسيولوجى بنفسه وموقعه فى العالم الاجتماعى" (ibid; 489)؛ وبطريقة مشابهة للممارسة التنبؤية (لاحظ الأهمية التى يضيفها جولدنر على هذا المصطلح)، فإنها تستهدف جعل منتج ثقافى جديد قادراً على توليد سوسيولوجيا محررة سياسيا[٦٧]. ومثل بيرجر، يجعل جولدنر الشخص الفرد: "أنا" السوسيولوجى، محور الانعكاسية - يجعله موضوعها (أو هدفها) وكذلك حاملها[٦٨]. ويقر بورديو بهذا الاهتمام؛ فكشف الدوافع الاجتماعية والشخصية التى يستثمرها المحلل فى بحثه هو أمر مرغوب وضرورى. لكنه يجد أنه يقصر عن تحديد المرشحات المحورية التى تحرف الإدراك السوسيولوجى؛ وذلك لأنه يتجاهل حدود المعرفة المرتبطة نوعيًا بعضوية المحلل وموقعه فى المجال الثقافى[٦٩].

وللمزيد من الدقة، يشير بورديو إلى ثلاثة أنواع من التحيزات يمكن أن تزيغ النظرة السوسيولوجية. الأول: هو ذلك الذى أبرزه دعاة آخرون للانعكاسية: وهو الأصول والإحداثيات **الاجتماعية** (الطبقة، النوع، العرق، إلى آخره) للباحث الفرد. وهذا أكثر التحيزات بداهة. ومن هنا فإنه أسهلها فى السيطرة عليه بواسطة النقد المتبادل والذاتى. أما التحيز الثانى فيندر تبينه أو التفكير فيه: إنه ذلك المرتبط بالموقع الذى يحتله المحلل، ليس فى البنية الاجتماعية الأوسع، بل فى العالم المصغر للمجال **الأكاديمى**، أى: فى الفضاء الموضوعى للمواقع الثقافية الممكنة التى تقدم إليه عند لحظة محددة، وأبعد منها، فى مجال السلطة. فوجهات نظر السوسيولوجين، مثلهم مثل أى منتجين ثقافيين آخرين. دائما ما تدين بشىء لوضعهم فى مجال يعرف فيه الجميع

أنفسهم جزئيا على أسس علائقية، باختلافهم ومسافتهم عن آخرين معينين يتنافسون معهم. علاوة على ذلك؛ فإن العلماء الاجتماعيين يجدون موقعهم قرب القطب الخاضع لمجال السلطة؛ ومن ثم فإنهم تحت نير قوى التجاذب والتنافر التى تلقى بثقلها على المنتجين الرمزيين كلهم (Bourdieu 1971d, 1988a, 1989a).

لكن التحيز الثالث هو أكثرها أصالة بالنسبة لفهم بورديو للانعكاسية. **فالتحيز الثقافى النزعة** الذى يغرينا بأن نؤول العالم على أنه **استعراض** أو منظومة من الدلالات التى يجب تفسيرها وليس على أنه مشكلات عينية يجب حلها عملياً، هو تحيز أعمق وأكثر تشويهًا من التحيزين المتجذرين فى الأصول الاجتماعية أو فى موقع المحلل فى المجال الأكاديمى؛ لأنه يمكن أن يؤدى بنا إلى الفقدان التام للاتلاف النوعى differentia specifica لمنطق الممارسة (Bourdieu 1990a, 1990e). فى كل مرة نخفق فيها فى أن نخضع للنقد المنهجى "الافتراضات المسبقة المنقوشة فى حقيقة التفكير فى العالم، فى حقيقة الاعتزال عن العالم وعن الفعل فى العالم لكى نفكر فى ذلك الفعل" (Bourdieu 1990e: 382)، فإننا نخاطر بأن نهدم المنطق العملى ونجعله منطقاً نظرياً[٧٠]. وإذا وضعنا فى الاعتبار أن هذه الافتراضات المسبقة مبنية على هيئة مفاهيم، وأدوات تحليل (شجرة النسب، والإستبيانات والتقنيات الاحصائية، إلى آخره)، وعمليات بحث عملية (مثل روتينات التشفير، وإجراءات "تنظيف البيانات"، أو طرق الارتجال العملى فى العمل الميدانى)، فإن الانعكاسية لا تتطلب الاستيطان الذهنى بقدر ما تتطلب التحليل السوسيولوجى الدائم والتحكم فى الممارسة السوسيولوجية (Champagne et al. 1989).

بالنسبة لبورديو ــ إذن ــ لا تنطوى الانعكاسية على تأمل الذات فى الذات على طريقة selbsbeuresstsein الوعى بالذات الهيجلى[٧١]. أو على طريقة "المنظور الذاتولوجى egological " (Sharrock & Anderson 1986 : 35) الذى تدافع عنه الإثنو ــ منهجية، والسوسيولوجيا، الفنومنولوجية، وجولدنر. بل يستتبعها، بالأحرى، الاستكشاف المنهجى "لمقولات الفكر غير المفكر فيها التى تحدد حدود المفكر فيه وتحدد الفكر سلفا"(Bourdieu 1982a: 10)، وكذلك ترشد التنفيذ العملى للاستقصاء الاجتماعى. و"العودة" التى تطالب بها تمضى إلى أبعد من الذات المجربة لتضم البنية التنظيمية والإدراكية للتخصص. وما يجب تمحيصه باستمرار **وتحييده، خلال فعل بناء الموضوع نفسه**، هو اللاوعى الجمعى العلمى الكامن فى النظريات، والمشكلات، والتصنيفات (خصوصا التصنيفات القومية) للحكم المدرسى (Bourdieu1990j). وينتج من هذا أن ذات الانعكاسية يجب فى النهاية أن تكون هى المجال العلمى الاجتماعى **بكامله** in toto. وبفضل حوار السجال العام والنقد المتبادل، لا يتم القيام بعمل تشييء الذات التى تقوم بالتشييء بواسطة مؤلفه وحده بل بواسطة من يحتلون كل المواقع المتخاصمة والمكملة لبعضها والتى تكون المجال العلمى. وإذا كان لهذا الأخير أن ينتج وأن يكافيء الهابيتوسات العلمية الانعكاسية، فلابد له أن يضفى الطابع المؤسسى فعليا على الانعكاسية فى آليات التدريب، والحوار، والتقييم النقدى. وبالتالى، فإن ما يصبح هدف الممارسة التحويلية هو التنظيم الاجتماعى للعلم الاجتماعى، بوصفه مؤسسة منقوشة فى كل من الآليات الموضوعية والذهنية.

بوضوح، لا يشارك بورديو فى "مزاج نزعة الشك التفسيرية" (Woolgar 1988: 14) التى تحفز "الانعكاسية النصية" التى يدعو إليها أولئك الأنثروبولوجيون الذين افتتنوا مؤخراً بالعملية التأويلية للتفسير الثقافى فى المجال وبصنع الواقع (من جديد) من خلال التدوين الإثنوجرافى[٧٢]. وهو ناقد قاس لما عمده جيرتس (Geertz 1987: 90) على نحو لطيف باسم "مرض اليوميات"، لأن الانعكاسية الأصيلة لا تنتج بالانخراط فى "تأملات حول العمل الميدانى" **بعد الحدث** Post Festum على طريقة رابينوف (Rabinow 1977)؛ كما أنها لا تتطلب استخدام ضمير المتكلم للتأكيد على التقمص، و"الاختلاف" **(الإرجاء** différance) أو تطوير النصوص التى تضع الملاحظ الفرد فى فعل الملاحظة. "إنها بالأحرى تتحقق بإخضاع **موقع** الملاحظ للتحليل النقدى نفسه الذى يخضع له الموضوع المبنى بين أيدينا" (Barnard 1990 : 75)[٧٣]. وليست، كما يزعم رابينوف(1977: 162)، "شبكات الدلالة "الفيبرية هى ما يفصل

الإثـــنوجرافى عـــن ابن البلد، بل شرطهما الاجتماعى، أى: مسافتهما الاختلافية عن الضرورة المحايثة للعالم موضع الفحص

(Bourdieu 1990a : 14). ليس ما يجب الكشف عنه هو اللاوعى الفردى للباحث بل اللاوعى الابستمولوجى لتخصصه: "ما [يجب] عمله ليس [هو] أن نلغى هذه المسافة سحريا عن طريق مشاركة زائفة بدائية النزعة بل هو تشييء هذه المسافة التشييئية والشروط الاجتماعية التى تجعلها ممكنة، مثل خارجية الملاحظ، وتقنيات التشييء التى يستخدمها، إلى آخره"(Bourdieu 1990a : 14،الترجمة معدلة)[٧٤].

مـــن هنا فإن إصرار بورديو الذى يشبه الوسواس الأوحد على العودة الانعكاسية ليس تعبيرا عن نوع من "الحس بالشرف" الابستمولوجى لكنه مبدأ يؤدى إلى بناء الموضوعات العلمية على نحو مختلف. إذ إنـــه يساعد على إنتاج موضوعات لا يكون قد جرى فيها دون قصد إسقاط علاقة المحلل بالموضوع، ولا تعـــانى من التزييف الذى يدخله ما وصفه، متبعا جون أوستن، باسم "المغالطة المدرسية" (Bourdieu 1990e). ويوضـــح بورديو ذلك فى مناقشة للانتقال من "القاعدة" إلى "الاستراتيجية" الذى يميز بين آرائه، وآراء بنيوية ليفى ــ شتراوس[٧٥]:

إن التغـــير فى نظرية الممارسة الذى يثيره التأمل النظرى فى وجهة النظر النظرية، وفى وجهة الـــنظر العملية، وفى اختلافاتهما العميقة، ليس تأمليًا خالصًا: إذا يصاحبه تغير حاد فى عمليات البحث العملية ومكاسب علمية ملموسة تماماً. فمثلاً يجد المرء نفسه مدفوعا إلى إيلاء الاهتمام إلـــى خصائص الممارسة الطقسية التى تميل النزعة المنطقية البنيوية إلى تنحيتها جانبًا أو إلى معاملـــتها علـــى أنهـــا اختلالات لا معنى لها لحساب الجبر الأسطورى، إلى إيلاء الاهتمام إلى الوقائع المتعددة المعنى، غير المحددة أو غير المعينة، ناهيك عن التناقضات الجزئية والضبابية التى تتخلل النسق برمته وتعلل مرونته، وانفتاحه. وباختصار كل ما يجعله "عمليا" وبذلك موجها للاســـتجابة بـــأقل تكلفـــة (خصوصـــا بالنســـــبة للبحث المنطقى) للاحتياجات الطارئة للوجود والممارسة العاديين. (384 : 1990 e).

هـــذه الـــنقطة تســـتحق الـــتمهل عندها، لأن هذا التحول فى المنظور ــ أى: إدخال نظرية فى الممارســـة النظرية، فى قلب نظرية الممارسة ــ هو الذى أتاح اكتشاف بورديو منطق الممارسة، مثلما دفعـــته إلى تأمل السمة النوعية للمنطق النظرى أوجه الشذوذ الامبيريقية التى كان ذلك المنطق النظرى يظهـــرها بعناد فى مادته الميدانية (Bourdieu 1990a : 11 - 14) هنا ندور دورة كاملة ونرى كيف أن فهم بورديـــو للانعكاســـية يشكل جزءا متكاملا من مفهومه لتفسير النظرية والبحث. فعن طريق الكدح لكى يحـــل، امبيريقـــيا، وحتى أصغر التفاصيل، كل التناظرات والتعارضات التى تكون بنية نشأة الكون لدى القبيليـــن اضطر بورديو إلى تنظير الاختلافات بين المنطق المجرد والمنطق العملى[٧٦]. وعلى العكس، فلأنـــه كـــان يتأمل نظريا باستمرار فى ممارسته الخاصة كأنثروبولوجى، استطاع أن يتعرف على عدم التناغم بينهما ويلتقطه.

إذا كانت الانعكاسية هى ما يحدث مثل هذا الاختلاف الإدراكى الدال، فى مقابل الاختلاف البلاغى أو الوجـــودى، فـــى القـــيام بالاستقصاء الاجتماعى، فلماذا لا تجرى ممارستها بشكل أوسع؟ يشير بورديو إلى أن المصـــادر الحقيقية للمقاومة تجاهها ليست ابستمولوجية بقدر ما هى اجتماعية[٧٧]. فالانعكاسية السوسيولوجية تثير المصـــاعب علـــى الفـــور لأنها تمثل هجوماً مباشراً على الحس المقدس بالفردية الأثير جداً لدينا نحن الغربيين، وخصوصًا على إدراك الذات الكاريزمى لدى المثقفين الذين يحبون أن يعتقدوا أنهم غير محددين، "طافين بحرية"، ومتمتعيـــن بـــنوع مـــن النعمة الرمزية[٧٨]. والانعكاسية ــ بالنسبة لبورديو ــ هى على وجه الدقة ما يمكننا من الإفـــلات مـــن مثل هذا الوهم عن طريق كشف الاجتماعى فى قلب الفردى، كشف اللاشخصى تحت ماهو حميم، كشـــف العـــام المدفون عميقا داخل أشد الأشياء خصوصية[٧٩]. وهكذا، فإنه حين يمتنع عن دخول لعبة الاعتراف الحمـــيمى، مشـــيرا بدلا من ذلك إلى الخصائص العامة لخبراته الاجتماعية التى أسهمت بالقدر الأكبر فى تشـــكيله(Bourdieu 1988a: xxvi; & Belou, Part 2, Section 7) فإنه لا يفعل سوى أن يطبق على نفسه مبدأ

سوسيولوجياه (Bourdieu 1989a : 449) الذى طبقا له يكون:

الأشخاص، فى أشد حالاتهم شخصية، تشخصا من الناحية الجوهرية للمقتضيات المنقوشة فعليا أو احتماليا فى بنية المجال أو، بالأدق، فى الموقع الذى يحتلونه داخل هذا المجال.

لا يشعر بورديو بالحاجة إلى البوح بخصوصيات مدوية لكى يشرح نفسه سوسيولوجيا، لأن ما يحدث له ليس فريداً فى نوعه: بل إنه مرتبط بمسار اجتماعى. ومرة أخرى، يدفع كل شىء بالمرء إلى الاعتقاد بأن انشغال بورديو بالانعكاسية يجد جذوره، كما يمكن أن تتنبأ نظريته ذاتها فى مساره الاجتماعى والأكاديمى ويعبر عن شروط تأسيس هابيتوسه العلمى المبكر. إنه، أولاً، نتاج للتفاوت البنيوى بين هابيتوسه الأولى (الطبقى)، والهابيتوس المطلوب للتكامل السلس فى المجال الأكاديمى الفرنسى لأعوام الخمسينات. إن دخول بورديو عالم المثقفين بوصفه شخصًا غريبًا وسىء التكيف قد وضع مسافة محددة بينه وبين أوهام أولئك الأساتذة الذين تمر "الرؤية الملكية" للعالم الاجتماعى بالنسبة لهم دون أن يلاحظوها لأنها هى رؤية طبقتهم الأصلية[٨٠]. العامل الرئيسى الثانى هو حرب التحرير الجزائرية: فقد كان من المستحيل تقريباً، فى الظروف المفزعة التى خلقتها الجهود المنهجية للعسكريين الفرنسيين لإخماد القومية الجزائرية، ألا يتساءل المرء باستمرار بشأن الامتياز الغريب للأكاديمى الذى ينسحب من العالم لكى يلاحظه والذى يزعم الانفصال عن الموضوعات التى يدرسها. فحتى نشاط التدريس الحميد عادة لايمكن، فى هذا السياق ــ إلا أن يكتسب بعدا سياسيا مشحونا بدرجة عالية كان يتطلب ارتدادا تحليليا إلى المحلل وممارسته.[٨١] ثالثا، إن هذا الميل إلى الانعكاسية المعرفية قد يكون جزئيا نتاج تحول بورديو من الفلسفة إلى العلم الاجتماعى، وهوتحول لم يتم دون خسائر (بالنسبة للمكانة الجامعية وصورته عن نفسه)[٨٢] ومن ثم كان يمكنه أن يشجع التساؤل حول ممارسة المرء والتأمل فى وضع العالم الاجتماعى ووضع الفيلسوف.

لكن تفسير "ذوق" بورديو بشأن الانعكاسية بمجرد الإشارة إلى هابيتوسه سيكون أمرا أحادى الجانب؛ فعلى غرار مفهومه للنظرية والبحث، فإن استعداده المؤسس اجتماعيا لإضفاء الإشكالية على النظرة السوسيولوجية قد وجد فى المجال الثقافى الفرنسىلأعوام الخمسينيات والستينيات بيئة مواتية لتحققه. ويتصل بهذا الأمر عدد من العوامل: وجود نماذج حية عظيمة للمهنة الثقافية ــ وأبرزها النموذجان اللذان يجسدهما ليفى ــ شتراوس، وسارتر ــ والحس بالطموح الثقافى والثقة فى النفس اللذين يبعثهما التخرج من مدرسة المعلمين العليا.Ecole normale Supérieure حين كانت مكانة المدرسة فى ذروتها تقريبا؛ والتركز غير العادى لرأس المال العلمى فى باريس خلال فترة إعادة بناء أكاديمية شاملة (فى أعقاب الانهيار أثناء الحرب) والتوسع غير المسبوق للعلوم الاجتماعية، وانضمام بورديو المبكر إلى معهد فريد فى توجهه متعدد التخصصات وفى انفتاحه على التيارات الثقافية الأجنبية، وكذلك الحماية التى قدمتها "الرعاية" التى نالها ممن ربما كانوا يمثلون الثلاثى الأبرز منزلة بين العلماء الاجتماعيين الفرنسيين لحقبة ما بعد الحرب، وهم ليفى ــ شتراوس، وبروديل، وآرون (الذى كان مساعده بورديو على وشك العودة بتعجل من الجزائر).[٨٣]

والنتيجة، أن انشغال بورديو بالانعكاسية، مثله مثل نظريته الاجتماعية، ليس متمحورا حول الذات أو الكلمة بل يرتكز جوهريا على، ويتوجه صوبا، إلى الممارسة العلمية. وهو لا ينعقد حول الشخص الفردى للسوسيولوجى فى حميميته المميزة، بل حول تسلسل الأفعال والعمليات التى يؤديها باعتبارها جزءًا من عمله وحول اللاوعى الجمعى المنقوش فيها. وأبعد ما تكون عن تشجيع النرجسية والأنانية، فإن الانعكاسية المعرفية تدعو المثقفين للتعرف على، الحتميات النوعية التى تخضع لها أعمق أفكارهم والعمل على تحييدها، وتطرح مفهوما لمهنة البحث يستهدف تدعيم وسائل أمانه الابستمولوجية .

٧- العقل، والأخلاق، والسياسة.

كذلك فإن للانعكاسية المعرفية فائدة أخرى: فهى تفتح إمكانية التغلب على التعارض بين النسبية العدمية لـ "التفكيك" ما بعد الحداثى الذى يدعو إليه ديريدا، والإطلالية العلموية للعقلانية "الحداثية" التى يدافع عنها هابرماس. لأنها تسمح لنا بإضفاء التاريخية على العقل دون تذويبه، بإقامة عقلانية تاريخية توفق التفكيك مع الكلية، توفق العقل مع النسبية، بإرساء عملياتهما على أساس البنيات الموضوعية ــ ولو أنها معطاة تاريخيا ــ للمجال العلمى. فمن ناحية، يؤمن بورديو، مثل هابرماس، بإمكانية الحقيقة العلمية واستحسانها، وهو ــ فى هذا ــ حداثى على نحو جياش[٨٤]. لكنه يصر ــ ضد منظر فرانكفورت ــ على أن مشروع إرساء العقل على بنيات الوعى أو اللغة عبر ــ التاريخية يشارك فى وهم متعال يجب على العلوم التاريخية أن تخلص نفسها منه.ومن ناحية أخرى، يتفق بورديو مع ديريدا وفوكوه على وجوب تفكيك المعرفة، على أن المقولات هى اشتقاقات اجتماعية مشروطة وأدوات للسلطة (الرمزية) تملك فعالية تأسيسية، على أن بنيات الخطاب حول العالم الاجتماعى عادة ما تكون بناءات مسبقة اجتماعية مشحونة سياسيا. العلم فى الحقيقة ــ وكما رأى جرامشى جيدا[٨٥] ــ هو نشاط سياسى بامتياز. لكنه ليس بسبب ذلك مجرد سياسة؛ وبذلك يكون عاجزا عن إنتاج حقائق صالحة بشكل عام.إذ إن دمج سياسة العلم (المعرفة) بسياسة المجتمع (السلطة) يعنى إجراء محاكمة مقتضبة للاستقلال الذاتى المؤسس تاريخيا للمجال العلمى وإلقاء طفل السوسيولوجيا مع ماء استحمام الوضعية[٨٦] هنا يفترق بورديو مع ما بعد البنيوية: إذ يجادل بأن التفكيك إذا فكك نفسه، فسوف يكتشف شروط إمكانه التاريخية. ومن ثم يرى أنه هو نفسه يفترض سلفا معايير للحقيقة والحوار العقلى متجذرة فى البنية الاجتماعية للعالم الثقافى.

العقل ــ فى رأى بورديو إذن ــ هو نتاج تاريخى لكنه نتاج شديد التناقض من حيث أن بإمكانه "الهروب" من التاريخ (أى من الخصوصية) فى شروط معينة يجب (إعادة) إنتاجها باستمرار بالعمل بشكل ملموس تماما لتأمين **الأسس المؤسسية للتفكير العقلانى** وبعيدا عن تحدى العلم، فإن تحليله لتوليد مجالات الإنتاج الثقافى وأدائه يهدف إلى إرساء العقلانية العلمية فى التاريخ، أى: فى العلاقات المنتجة للمعرفة المتشيئة فى شبكة المواقع، و "المكتسبة للطابع الذاتى" فى الاستعدادات واللذين يكونان معا المجال العلمى بوصفه ابتكارًا اجتماعيًا فريد تاريخيا:

لابد لنا، بتوصيل الاختزال التاريخى النزعة إلى نتيجته المنطقية،أن نبحث عن مصادر العقل ليس فى "ملكة" إنسانية، أى، فى طبيعة، بل فى ذات تاريخ تلك الأكوان الاجتماعية المصغرة الخاصة التى يتصارع فيها الفاعلون، باسم الكلى، من أجل الاحتكار المشروع للكلى، وفى المأسسة المتزايدة للغة حوارية تدين بخصائصها التى تبدو داخلية للشروط الاجتماعية لتولدها واستخدامها. (Bourdieu 1990 e : 389).

إن مقولة الانعكاسية لدى بورديو تتعارض، ليس مع "العلموية الحداثية" كما يزعم لاش (Lash 1990)، بل مع المفاهيم الوضعية للعلم الاجتماعى. ومن الأمور الجوهرية لهذه الأخيرة الفصل المحكم بين الحقيقة والقيمة (Giddens 1970). إلا أن المعرفة الامبيريقية، بالنسبة لمؤلف التميز، ليست متنافرة مع اكتشاف أهداف أخلاقية والسعى إليها كما يود لنا أن نعتقد أتباع نوع أو آخر من أنواع الوضعية. وفى توافق مع مشروع دوركهايم (Filloux 1970, Bellah, 1973,Lacroix 1981)، فإن بورديو منشغل بعمق بالمغزى الأخلاقى والسياسى للسوسيولوجيا. وعلى الرغم من أن عمله لا يمكن اختزاله إلى ذلك، فإنه ينقل رسالة أخلاقية على مستويين.

أولا، من وجهة نظر الفرد، فإنها تقدم أدوات لتمييز مناطق الضرورة ومناطق الحرية، ومن ثم لتحديات الفضاءات المفتوحة للفعل الأخلاقى. يجادل بورديو (1989a:47) بأن الفاعلين طالما ظلوا يتصرفون على أساس ذاتية هى التمثيل الداخلى دون توسط للموضوعية، فإنهم لا يمكن إلا أن يظلوا "الذوات الظاهرية للأفعال التى تكون ذاتها هى البنية ". وعلى النقيض، كلما زاد وعيهم

بالاجـتماعى فـى داخلهم عن طريق التملك الانعكاسى لمقولات فكرهم وفعلهم، قل احتمال أن تحركهم الخارجية التى تسكنهم. ويمكن أن نرى فى التحليل الاجتماعى نظيرا جماعيا للتحليل النفسى: فمثلما يمكن أن يحـررنا العـلاج بالكلام فى التحليل النفسى من اللاوعى الفردى الذى يدفع ممارستنا أو يقيدها، فإن التحلـيل الاجتماعى يمكن أن يساعدنا على كشف اللاوعى الاجتماعى الكامن فى المؤسسات والمزروع عميقا فى داخلنا كذلك. وبينما يشارك عمل بورديو كل (ما بعد) البنيويات فى رفضها للكوجيتو الديكارتى (Schmidt 1985)، فإنـه يختلف معها فى أنه يحاول إتاحة البزوغ التاريخى لشىء يشبه ذاتا عقلانية عن طريق التطبيق الانعكاسى لمعرفة علمية ــ اجتماعية.[٨٧]

كذلـك يكمـن البعد الأخلاقى للسوسيولوجيا الانعكاسية فيما يمكن أن نسميه وظيفتها السبينوزية. فمهمـة السوسـيولوجى، فـى نظر بورديو، هى نزع طبيعية ونزع قدرية العالم الاجتماعى، أى: تدمير الأسـاطير التى تكسو ممارسة السلطة وتأييد السيطرة.[٨٨] لكن فضح الزيف لايتم بهدف معاقبة الآخرين وغرس الإحساس بالذنب [٨٩] فمهمة السوسيولوجيا هى، على العكس تماما، " جعل السلوكات **ضرورية**، تخليصـها مـن الاعتباطية بواسطة إعادة تأسيس عالم القيود التى تحددها، دون أن تبررها" (Bourdieu 1989q : 1143).

فـى إظهـاره للروابط التى يدركها بين سوسيولوجيا علمية وبناء أخلاقيات يومية، "على نطاق صغير"، ينضم بورديو إلى آلان وولف(Alan Wolfe 1989q, 1989b) وريتشارد ماكسويل براون (Richard Maxwell Brown 1990) فـى وضـعه البعد الأخلاقى الذى لا مفر منه للعلم الاجتماعى فى موضع الصدارة. لكنه لايـزعم، كمـا يفعـل وولـف، أن السوسيولوجيا يمكنها أن تقدم الفلسفة الأخلاقية التشغيلية للمجتمعات المتقدمة. لأن هذا سوف يعادل إعادة السوسيولوجى إلى الدور التنبؤى لـ "لاهوتى الدين المدنى " للحداثة لـدى السـان سيمونيين.[٩٠] فبالنسبة لبورديو، يمكن للسوسيولوجيا أن تخبرنا بالشروط التى يكون دور الفاعل الأخلاقى ممكنا فيها وبكيفية فرضه مؤسسياً، وليس بما يجب أن يكون مساره[٩١].

يفهـم بورديـو السوسـيولوجيا على أنها **علم سياسى على نحو بارز** من حيث أنه يهتم محوريًا بـها، ويشتبك فى أحبولة استراتيجيات وآليات السيطرة الرمزية[٩٢]. إذ لا يمكن للعلم الاجتماعى، نتيجة لطبـيعة موضوعه نفسها ولوضعية ممارسيه فى القطاع الخاضع من مجال السلطة، أن يكون محايدًا، أو منفصـلاً، أو لا ــ سياسيًا. ولن يبلغ أبدًا الوضع "اللا ــ خلافى" للعلوم الطبيعية. والبرهان هو اللقاءات الدائمـة الـتى يقوم بها مع أشكال المقاومة والرقابة (الداخلية بقدر لا يقل عن كونها خارجية) التى تهدد بالانـتقاص مـن اسـتقلاله الذاتى والتى لاتعرفها إلى حد كبير القطاعات الأكثر تقدما من البيولوجيا أو الفيزياء بالنسبة لبورديو (1975d : 101)،

لا يمكن أن يكون الأمر على خلاف ذلك لأن موضوع الرهان فى الصراع من أجل السلطة العلمية فى مجال العلوم الاجتماعية، أى من أجل السلطة لإنتاج، وفرض، وغرس التمثيل المشروع للعالم الاجتماعى، هو أحد رهانات الصراع بين الطبقات فى المجال السياسى. وينتج عن هذا أن المواقع فـى الصراع الداخلى لا يمكنها أن تصل إلى درجة الاستقلال عن المواقع فى الصراعات الخارجية الـتى يمكن ملاحظتها فى مجال العلوم الطبيعية. إن فكرة علم محايد هى خرافة، وخرافة مغرضة، تمكـن المـرء أن يمـرر علـى هيـئة علم شكلاً جرى تحييده وتخفيفه من التمثيل السائد للعالم الاجـتماعى يكـون فعالا بوجه خاص من الناحية الرمزية لأنه قابل جزئيا لإساءة الإدراك. وعن طريق كشف الآليات الاجتماعية التى تضمن الحفاظ على النظام القائم والتى ترتكز فعاليتها الرمزية الخاصـة علـى إساءة إدراك منطقها وتأثيراتها، ينحاز العلم الاجتماعى بالضرورة فى الصراعات السياسية.

(الترجمة معدلة والتشديد من عندنا)

المأزق النوعى للعلم الاجتماعى هو أن التقدم باتجاه المزيد من الاستقلال الذاتى لا يتضمن تقدما باتجـــاه الحياد السياسى. وكلما زادت سلبية ــ كدرع ضد أشكال التضليل والسيطرة الرمزية التى تمنعنا روتينيا من أن نصبح فاعلين سياسيين أصيليين[٩٣].

وكما يبين القسم الأخير من ورشة عمل شيكاجو (الجزء ٢، القسم ٢)، لا يشارك بورديو القدرية للعـــالم الاجـــتماعى التى ينسبها إليه من يقرأون فى عمله نزعة وظيفية مفرطة وعقيمة سياسيا. فرؤيته ليست رؤية نيتشوية "لكون من الوظيفية المطلقة" (Rancière 1984 : 34) حيث "[يشارك] كل تفصيل دقيق للفعـــل الاجتماعى فى مخطط واسع للاضطهاد" (Elster 1990 : 89 – 90, 113). إذ لا يعتقد بورديو، مثلما يفعـــل موســـكا وباريتو، "المنظران النخبويان" للمدرسة الإيطالية، أن العالم الاجتماعى منقسم على نحو باطنى وإلى الأبد إلى كتل صخرية من الحاكمين والمحكومين، من النخبة واللانخبة. ويرجع هذا قبل كل شـــىء إلـــى أن المجتمعات المتقدمة ليست كونا موحدًا بل كيانات متمايزة ، مكتسبة جزئيًا للطابع الكلى ومكونـــة مـــن مـــنظومة مـــن المجـــالات المتقاطعة لكنها ذاتية ــ التنظيم على نحو متزايد، ولكل منها مسيطروه وخاضعوه. بالإضافة إلى ذلك، يجرى، فى كل مجال، تحدى المراتبية بشكل مستمر، كما يمكن تحـــدى الأســـس نفســـها من أبطالها التى تشكل الشبكة التحتية لبنية المجال. ولا يستبعد الحضور الكلى للسيطرة إمكانية المقرطة النسبية. ومع زيادة تمايز مجال القوة، ومع زيادة تعقيد تقسيم عمل السيطرة (Bourdieu 1989a : 533 - 59)، وانخراط المزيد من الفاعلين فيه، لكل واحد منهم مصالحة النوعية، ومع استحضار الكلى فى المزيد من المجالات الفرعية التى تكون فضاء اللعب للطبقة المسيطرة (فى السياسة، وفـــى الديـــن، وفـــى العلم، وحتى فى الاقتصاد، مع الوزن المتزايد للتعليل القانونى فى الإدارة اليومية والتوجيه الاستراتيجى للهيئات)، تتزايد فرص دفع العقل إلى الإمام.

ثانـــيا، لا يعـــتقد بورديـــو أن العالم الاجتماعى يطيع قوانين لا تتغير. ولا يريد المشاركة فى "أطروحة اللاجدوى"، هذا الشكل من البلاغة المحافظة (والراديكالية أحيانًا) التى تؤكد أنه ما من فعل جماعى يستحق عناء القيام به لأنه سيثبت أنه عاجز عن إصلاح اللامساواة الحالية. وعلى الرغم مـــن أن بورديـــو يصور العالم الاجتماعى على أنه مبنين بدرجة عالية، فإنه يختلف مع فكرة أنه يـــتطور "طـــبقا لقوانيـــن محايثة، تكـــون الأفعـــال الإنســـانية عاجزة بشكل محـــرك عن تعديلها" (Hirschman 1991 : 72). فالقوانين الاجتماعية، بالنسبة له، هى انتظامات مرتبطة زمانيًا ومكانيًا تظـــل صـــالحة طالمـــا ســـمح للشروط المؤسسية التى تقوم عليها بالبقاء. وهى لا تعبر عما أشار إليه دوركهـــايم على أنه "ضرورات لا يمكن اجتنابها" بل بالأحرى إلى روابط تاريخية يمكن فى العادة فكها سياسيا، بشرط أن يكتسب المرء المعرفة الضرورية بجذورها الاجتماعية.

أما المهمة Beruf السياسية الخاصة ببورديو (1980b : 18) كسوسيولوجى فتبدو متواضعة:

هدفى هو المساهمة فى منع الناس من أن يكون باستطاعتهم التفوه بكل أنواع الهراء حول العالم الاجـــتماعى. قـــال شـــونبرج يومًـــا أنـــه ألف الموسيقى حتى لا يعود بإمكان الناس أن يكتبوا الموســـيقى. وأنـــا أكتب حتى لا يعود باستطاعة الناس، وفى مقدمتهم أولئك المخولين بالكلام، المتحدثيـــن الرســـميين، أن ينـــتجوا، بصـــدد العالم الاجتماعى، الضوضاء التى لها كل مظاهر الموسيقى.

لاشك أن أبلغ مشاركة سياسية لبورديو تتمثل فى الحقيقة فى كتاباته، خصوصًا تلك الكتابات عن التعلـــيم، والـــثقافة، والمثقفيـــن لكنه لم يصبح بسبب ذلك خاملا فى ميدان السياسة الرسمية. وبينما ظل بورديـــو بثـــبات على يسار الطيف السياسى الفرنسى. (فى دراسته المسحية عن "المثقفين الفرنسيين من سارتر إلى الأيديولوجيا الرخوة"، يكتب جورج روس [George Ross 1991 : 248, n.82] أن "من المألوف أن تجد السوسيولوجيين ذوى الميول اليسارية فى باريس هذه الأيام يتحسرون على أن "بورديو هو كل ما تبقى لنا")[٩٥]، فإن مواقفه غير معروفة تقريبا خارج وطنه لأن طريقة تدخله فى الحلبة السياسية مختلفة عن طريقة المثقفين الفرنسيين. فهى شحيحة، حرون، وهادئة نسبيًا (فهو، مثلاً، نادرا ما يوقع العرائض،

بالمقارنة مع الشخصيات الثقافية الأخرى الرئيسية ــ والثانوية) [٩٦]. وأفضل ما يميزها هو التوليفة القلقة بعض الشيء للالتزام العميق مع عدم الثقة العقلانية فى الارتباطات التنظيمية (فهو لا ينتمى إلى أى جماعة، أو حزب، أو اتحاد سياسى رسمى) والقائمة على فكرة أن العلماء، لكى يكونوا فعالين سياسيًا، يجب أولا أن يشكلوا مجموعة متآلفة مستقلة ذاتيا وذاتية ــ التنظيم.

وفى الحقيقة، فإن ثوابت موقف بورديو السياسى تقوم على أساس فهمه السوسيولوجى للتكون التاريخى للمثقفين بوصفهم حاملين لشكل خاضع من رأس المال (Bourdieu 1989d; see also Pinto 1984b, & Charles 1990). وهذه الثوابت هى، أولاً: رفض للاستعراضات الإجبارية "للالتزام"[٩٧] التى يمكن على نحو متناقض أن تؤدى إلى امتثالية للا ــ امتثالية تميل إلى نسف الاستقلال، وثانيا: إرادة إعمال كفاءة علمية بالمعنى الصحيح فى خدمة قضايا سياسية. وهكذا، فى الخمسينات، فى مدرسة المعلمين العليا، انضم بورديو إلى المقاومة للرقابة التى كان الحزب الشيوعى يمارسها على الحياة الثقافية بتعاون متحمس من جانب عديدين أصبحوا فيما بعد مناهضين متأججين للشيوعية[٩٨]. وفى بداية عقد الستينات، فى الجزائر، ونتيجة لعدم رضاه عن الاستنكارات والنصائح الأخلاقية، قام بدراسات مسحية وعمل ميداني فى قلب منطقة الحرب، ناقلاً فى تفصيل مسهب بعض أشد أشكال القمع الاستعمارى وحشية، مثل "مراكز إعادة التجميع" التى حللها فى (نزع الجذور، Le déracinement Bourdieu and Sayad 1964). وتضم كتاباته فى هذه الفترة كلا من الأعمال المدرسية ذات النغمة السياسية القوية[٩٩] والمداخلات الخارجية بدرجة أكبر، مثل مقال "ثورة فى الثورة" (Bourdieu 1961) الذى حذر فيه سلفا من التأثيرات الاجتماعية غير المقصودة والمخاطر المستقبلية لحرب التحرير.

وخلال ١٩٦٨ كان بورديو نشيطا مرة أخرى قبل الانتفاضة وفى أثنائها، متحدثا فى جامعات عديدة بدعوة من المجموعات الطلابية، رغم أن كتاب **الوارثين** (ونشر أصلا عام ١٩٦٤ & Bourdieu Passeron 1979, تضمن هجومًا مباشرا على أطروحات **الاتحاد القومى للطلبة الفرنسيين** UNEF، الاتحاد الطلابى الرئيسى، الذى كان يصور أعضاؤه على أنهم "طبقة اجتماعية" موحدة بإخفاء الاختلافات الداخلية المرتبطة بالأصول الطبقية والنوع[١٠٠]. وخلال السبعينات، وسابحا ضد المد الذى جرف عددا كبيرا من المثقفين الشيوعيين السابقين فى الخمسينات والماويين فى السبعينات إلى سخط محافظ صريح بدرجة أو بأخرى، إستمر بورديو فى تأكيد مواقف تقدمية، بعيدًا عن أضواء وسائل الإعلام وعن الموضات التى كانت تحكم الوسط الصحفى (مثلاً، ما أطلق عليه اسم الفلاسفة الجدد بقيادة جلوكسمان، وبرنار ــ أنرى ليفى وفينكلكروات). كذلك اختار ألا يشارك فى التظاهرات شبه ــ الطقسية التى حشدت عددا من المثقفين البارزين حول سارتر الذى كان عجوزا عندئذ، مفضلا وسائل عمل أقل تباهيا. وبوصفه معارضًا عنيدًا للأحزاب المحافظة التى حكمت البلاد حتى عام ١٩٨١، أصبح بورديو ناقدًا يساريا بناء للادارة الاشتراكية فى أعقاب إنتخاب ميتران. وبعد عودة اليسار إلى الحكم بعد فاصل "التعايش" خلال فترة ١٩٨٦ ــ ١٩٨٨، تدخل بشكل أكثر مباشرة فى عدد من الموضوعات التى تدخل ضمن نطاق كفاءته: مثل التعليم، والتليفزيون، والدعاية[١٠١].

وعبر السنين، كان بورديو منخرطا كذلك بشكل متقطع فى النضالات ضد العنصرية مع مجموعة SOS -Racisme ، دون أن ينضم إليها رسميًا رغم ذلك. ومؤخراً، أدار دراسة واسعة النطاق حول المعاناة الاجتماعية، كان هدفها هو محاصرة المؤسسات التى تفرض التطبيع والرقابة على المطالب الاجتماعية (انظر القسم ٢، الفصل ٢). والشيء المميز لموقف الانفصال والانخراط النقدى لديه (إذا استحضرنا الصيغة الثنائية الشهيرة لإلياس [Elias 1987a]) هو العمل الذى نظمه بورديو مع ميشيل فوكوه لصالح بولندا للاحتجاج على رد الفعل الوديع لحكومة فرنسا الاشتراكية على انقلاب ياروزيلسكى العسكرى فى ديسمبر ١٩٨١، وهو عمل يمثل إحدى محاولاته النادرة لإقامة صلة عضوية بين المثقفين وأكثر النقابات الفرنسية ابتكارية، أى نقابة CFDT

[الكونفيديرالية الفرنسية الديمقراطية للعمال]، التى استمر فى التعاون معها(١٠٢).

أما أشد أفعال بورديو السياسية إصرارًا، على الرغم من أنها أقلها ظهورًا، فهى تلك التى قام بها ضد ما يدركه على أنه الشرور الخفية للعالم الثقافى، وبالأخص النفوذ المتزايد للصحفيين والدارسين الذين يستخدمون الصحافة باعتبارها وسيلة لاكتساب سلطة فى المجال الثقافى لا يمكنهم الحصول عليها بطريقة أخرى (Bourdieu 1988a: especially 256 – 70, 8, 1980b). وربما كان هذا أكبر اختلاف بينه وبين سارتر أو فوكوه: فبينما استخدام الأخيران رأسمالهما الثقافى أساسا فى السياسة الأوسع للمجتمع، صوب بورديو ترسانته النقدية أولا وقبل كل شىء إلى أشكال الاستبداد ــ بالمعنى الباسكالى ــ التى تهدد المجال الثقافى ذاته. وعلى طريقة كارل كراوس (P. 212, note 175)، حارب أولئك المثقفين الذين يقومون بدور حصان طروادة للتبعية فى عالمهم ذاته.

بالنسبة لبورديو، يجد المثقف الأصيل تعريفه فى استقلاله عن السلطات الزمنية، عن تدخل السلطة الاقتصادية والسياسية. هذا الاستقلال الذاتى يؤكد نفسه فى وجود مواقع مؤسسية الطابع للحوار المنظم. ومجلة **ليبر : المجلة الأوربية لعرض الكتب** Liber هى أحد تلك المواقع التى عاون بورديو فى خلقها(١٠٣). ولأنها قد جرى تصورها على أنها أداة جماعية للنزال ضد النزعة الإقليمية والخصوصية الثقافية، فإن هدف **ليبر** هو تطوير فضاء يستطيع فيه الفنانون والعلماء السجال طبقا لمعاييرهم الخاصة، هو "كسر الحلقات الصغيرة للإعجاب المتبادل التى هى منبع الكثير من الأمجاد القومية، وكذلك على نحو متناقض، منبع التبادل العالمى للمناظرات الزائفة لكتبة المقالات"، وكذلك تحرير الأفكار من الصراعات حول المكانة والنفوذ المهنيين المحليين(١٠٤). وفى ذهن بورديو، فإن الغرض من **ليبر** هو تسهيل تشكيل "مثقف جمعى" أوربى قادر على التصرف بوصفه سلطة رمزية موازنة باتساع القارة. وبالمثل، فإن **وقائع البحث فى العلوم الاجتماعية** Actes de la recherche en sciences sociales، المجلة التى أسسها ويحررها بورديو منذ عام ١٩٧٥، تنتهج خطًا سياسيًا وعلميًا يمكن وصفه بأنه نوع من الحركية العلمية لصالح البحث عبر ــ التخصصى، متيقظة لتضميناتها ومسئوليتها السياسية ــ الاجتماعية، لكنها مستقلة تماما عن أى جدول أعمال سياسى رسمى. وتعمل المجلة على طريقة المثقف كما عرفه بورديو : مستقل لكنه ملتزم؛ منخرط لكنه ليس خاضعًا لأى معيار "للأرثوذكسية" السياسية(١٠٥).

وتزداد أهمية التطوير النشط لتلك المواقع المؤسسية للحوار العقلانى على ضوء التهديدات غير المسبوقة التى يواجهها المنتجون الرمزيون اليوم (Bourdieu 1989d). وتتضمن هذه التهديدات الانتهاكات المتزايدة للدولة وتغلغل المصالح الاقتصادية داخل عالم الفن والعلم؛ وتدعيم البيروقراطيات الضخمة التى تدير صناعات التليفزيون، والصحافة، والراديو، مكونة مؤسسة ثقافية مستقلة تفرض معاييرها الخاصة للانتاج والاستهلاك؛ والميل إلى تجريد المثقفين من قدرتهم على تقييم أنفسهم، وإحلال معايير صحفية بدلا من ذلك تقوم على رواج الموضوع، وسهولة القراءة، والجدة. هذه الضغوط تدفع المنتجين الثقافيين باتجاه خيار قسرى بين أن يصبح الواحد منهم" خبيراً، أى مثقفا فى خدمة المسيطرين" أو أن يظل" منتجا صغيرا مستقلا من الطراز القديم، يجد رمزه فى الأستاذ الذى يحاضر فى برجه العاجى" (in Bourdieu & Wacquant 1991: 31). وللإفلات من هذا الاختيار القاتل، يدعو بورديو إلى خلق نوع جديد من التدخل: هو **المثقف الجمعى**، يتيح لمنتجى المعرفة التأثير فى السياسة بوصفهم ذوائا مستقلة ذاتيا بتأكيدهم أولا لاستقلالهم كجماعة.

طوال الوقت، إمتنع بورديو عن ذكر قيمه الخاصة. لكن بإمكان المرء العثور فى المقدمات والتأبينات التى كتبها لآخرين على إقرار بأنواع الرهانات التى تحفزه. فمن الصعب ألا نتبين، فى ملاحظاته حول الموت المأساوى لموريس هالبفاخس (سلفه فى شغل كرسى السوسيولوجيا فىالكوليج

دوفرانس) فى معسكر إبادة نازى، ضربا من رسم الصورة ــ الذاتية بالوساطة حين يكتب قائلا:

إعلــم جــيداً أن الفضائل الأكاديمية ليست أثيرة هذه الأيام وأن من السهولة بمكان السخرية من الإلهام البورجوازى الصغير على نحو مبتذل، والاشتراكى ــ الديمقراطى بشكل غامض، الذى يبعثه أى مشــروع يهدف إلى أن يبنى، ضد كل أشكال النزعة الخصوصية، نزعة إنسانية علمية ترفض تمزيق الوجود إلى مجالين، الأول مكرس لتدقيقات العلم، والآخر مكرس لعواطف السياسة، وتجهد لوضع أسلحة العقل فى خدمة قناعات الأريحية.

(Bourdieu 1987m : 166 - 67)

إن أى شــخص تعــامل مــع بورديــو، ولو بشكل عابر، سيحس على الفور، حين يجده يمتدح هالبفاخس لمحافظته بإخلاص على "موقف ثقافى يؤدى إلى إدراك عمل الباحث على أنه مهمة نضالية [tâche militante] (وبالعكس)"، وحين يتحدث عن "الإرادة الشاملة" لدى هذا الأخير" لتطوير سياسة للعقل العلمــى، أولا وقــبل كــل شىء داخل النظام النوعى لانجازها، عالم الجامعة"، تقوم على "رؤية نقدية للمؤسســة"، سيحــس أنه يكشــف بعضا من القيم التى يكن لها إعزازا عميقا(١٠٦). وهذا يوحى، فى الختام، بأن سوسيولوجيا بورديو يمكن أيضا قراءتها على أنها سياسة Politique بالمعنى الذى يعطيه لهذا المصــطلح: أى محاولــة لتغيــير أسس الرؤية التى بواسطتها نبنى، ومن ثم يمكن عقلانيا وإنسانيا أن نصوغ، السوسيولوجيا، والمجتمع، وأنفسنا، فى النهاية.

الهوامش :

(١) راجع الملحق ٣ للوقوف على عيّنة واسعة من النقاشات الحديثة لسوسيولوجيا بورديو. وقد أصبحت كتب العرض أو الكتب النقدية المكرسة لعمل بورديو متاحة الآن فى الفرنسية Snyders 1976, Accardo 1983, Collectif 'Révoltes Logiques' 1948, Caillé 1987, & Ansart 1990, بــين آخرين. والألــمانية (تحت الطبع Eder 1989, Bohn 1990, Gebauer & Wulff,)، والإسبانيــة (Sanchez de Horcàjo 1979)، واليابانية (Yamamoto 1988)، والسويدية (Broady 1990)،والانجليزية (Harker, Mahar, & Wilkes 1990; Robbins 1991; Calhoun, Lipuma, & Moishe1992; ويجرى إعداد عدة مجلدات أخرى بالإنجليزية) وخلال العامين الماضيين، عقدت مؤتمرات بين ــ تخصصية حول عمل بورديو فى الولايات المتحدة، واليابان، والمكسيك، وألمانيا. ويعطى Broady & Person 1989 دلائل قياس ــ ببليوجرافى على القراءة المتزايدة لبورديو فى أمريكا تبين انعطافاً ملحوظاً نحو نهاية الثمانينات. وللوقوف على أمثلة على تأثير بورديو فى التخصصات المختلفة، راجع1988 b Ringer 1991, Rébérioux 1988, & Chartier بالنسبة للتاريخ الفكرى، والاجتماعى، والثقافى على الترتيب؛ وراجع Hanks 1990, Woolard 1985, & Corson 1991 بالنسبة للغويات الأنثروبولوجية؛ و Ortner 1984, & Rosaldo 1989 بالنسبة للأنثروبولوجيا ؛ و Schatzki 1987, Derrida 1990, & Dreyfus، بالنسبة للعالم السياسى Bon & Schemeil 1980, & Duby 1986 1991 بالنسبة للفلسفة؛ 1990 Gamboni 1983 a & 1989, Shusterman 1989, & Bürger بالنسبة لعلم الجمال؛ و Terdiman 19885, & Viala 1988 بالنسبة لنظرية الأدب.

(٢) ألف بورديو نحو ٢٥ كتابا و٢٦٠ مقالا تقريبا (ليس من بينها الترجمات والمجموعات فى دستة من اللغات الأجنبية من المجرية، والعربية، واليابانية، إلى الفنلندية، والهولندية، والصربو ــ كرواتية). والقائمة الببليوجرافية فى نهاية هذا الكتاب تضم مختارات من منشوراته الرئيسية بتركيز خاص على تلك المتاحة بالانجليزية.

(٣) راجع : Giddens 1984, Alexander 1988, Sztompka 1991: 5-27, Sewell 1992, & Brubaker and Waquant (تحت الطبع) حول مشكلة البنية / دور الفاعل، و Collins 1981 b & 1987, and Alexander et al. 1987.

حول معضلة التحليل المصغر ـ المكبر (ميكرو ـ ماكرو). ولأسباب ستتضح فيما يلى، يكون من الخطأ ضم بورديو إلى المنادين بـ"نظرية البنينة"، مثلما يفعل M nch (1989 : 101) ، و Wiely (1990 : 393). فنظرية البنينة، كما يؤكد واضعها (Giddens 1990a : 310)، مهتمة بشكل محورى بموضوعات الأنطولوجيا الاجتماعية وصياغة المفاهيم؛ بينما كان الدافع وراء النقلات النظرية لبورديو على الدوام هو الرغبة فى الاشتباك مع موضوعات امبيريقية جديدة، ولم يبد اهتمام كبير بتطوير مخطط مفهومى. بالإضافة إلى ذلك، تسبق نظرية الممارسة لدى بورديو نظرية البنينة لدى جيدينز (1984, 1979) بما لا يقل عن عقد من الزمن، وتجد جذورها فى منظومة مختلفة من الأسئلة الفلسفية (رغم أن جيدينز تشبث مؤخراً [1986 a] بالتعارض بين الموضوعية والذاتية الذى يمثل ذروة مشروع بورديو). ولصياغة مكثفة لجدل الهابيتوس والمجال، أو الموقع والاستعدادات، الذى يسعى عن طريقه بورديو لإلغاء معضلات الميكرو/ماكرو، والبنية / دور الفاعل، راجع بورديو 1980d 1981c. ويناقش بعض الاختلافات والتشابهات بين جيدينز وبورديو

Karp 1986 : 132 34, Miller and Branson 1987, Coenen 1989, Harker et al. 1990, & Sewell 1992.

(٤) بين أبرز من يستخدمون مقولة "الرأسمال الثقافى" فى أمريكا وبريطانيا، يمكن إدراج Alvin Gouldner (1979), Randall Collins (1979 & 1987), Cookson and Persell (1985a), Ivan Szelenyi (1988,) Martin & Szelenyi 1987), Paul DiMaggio (1982), Mike Featherstone (1987 a & b), and John Urry (1990). وللمزيد من الأمثلة الحديثة راجع

Eyerman, Svenson & Soderqvist 1987, Lareau 1987, Lamb 1989, Farkas et al. 1990, Katsilis & Rubinson 1990, Beisel 1990, and Di Magio 1991a.

انظر Lamont & Lareau 1988 للوقوف على مسح جزئى.

(٥) يمكن العثور على مسح أكثر تفضيلا وتدقيقا فى

(٦) "السوسيولوجيا هى فن التفكير فى أشياء مختلفة ظاهريا على أنها متشابهة فى بيئتها وأدائها ونقل ما ثبت حول موضوع مبنى، المجال الدينى مثلاً، إلى سلسلة كاملة من الموضوعات الجديدة. المجال الفنى أو السياسى. ألى آخره" (Bourdieu 1982 a : 40 J 41).

(٧) تجد مارى دوجلاس Mary Douglas (1981 : 163) أن "أكثر ما يثير الاهتمام لدى بورديو يكمن فى منهجه". ويستنتج تحليل برودى (Broady 1990) المستفيض لعمل بورديو أنه لا يقدم نظرية "عامة" فى المجتمع بل لابد من فهمه أولا باعتباره نظرية فى تشكل المعرفة السيوسيولوجية مناظرة، فى فضاء العلوم الاجتماعية، لتقاليد الابستمولوجيا التاريخية (المرتبطة بأسماء باشلار، وكانجيليم وكافييس) فى فلسفة العلوم الطبيعية والرياضيات وتاريخها.

(٨) كما يعبر روجرز بروبيكر (Rogers Brubaker 1989a: 23) : "يمكن للمرء أن يقرأ بورديو بأعظم استفادة بأن يعامل المفاهيم، والقضايا، والنظريات المطروحة فى عمله ليس، بالدرجة الأولى، على أنها حاملة لخصائص منطقية وموضوعات لعمليات منطقية، بل على اعتبارها محددات لعادات ذهنية معينة أو لمنظومات من العادات. وكلما زادت عمومية وتجريد المفهوم أو القضية، زادت أهمية قراءته على هذا النحو الذى يربطه بالاستعداد.

(٩) يبرز هاركر وآخرون (Harker et al. 1990) وفيرفيك (Vervaeck 1989) كيف يتطور فكر بورديو فى شكل لولبى.

(١٠) مثلاً، ضمن الإطار العلائقى الواسع نفسه، المرتكز على التفرقة المحورية التى وضعت عام ١٩٦٦ بين "الشرط الطبقى والموقع الطبقى" (Bourdieu 1966)، يمكن للمرء إدراك تطور ملحوظ من المفاهيم المبكرة إلى المفاهيم المتأخرة حول الطبقة بوصفها بناءً تاريخيا يجد جذوره فى الفضاء الاجتماعى (Bourdieu 1984a, 1985a, 1985b, 1987b, 1991d) (وراجع Eder 1989 لمناقشة ذلك). وغالبا، فإن التحويرات الضئيلة أو التى

تبدو تجميلية فى الألفاظ (من المصلحة إلى التوهم، من الطبقة المسيطرة إلى مجال السلطة، من رأس المال الثقافى إلى رأس مال المعلومات، أو، مؤخرا ، من الهابيتوس إلى النزوع Conatus) تشير إلى تحسينات وتغييرات تحليلية مهمة.

(١١) تجد مقولة "الموضوعية المزدوجة" للمجتمع تطويرها الأكمل فى Bourdieu 1990a (الفصل ٩، "موضوعية الذاتى") و1984a (الخاتمة)، و1978d .

(١٢) "لا يمكن للعلم الاجتماعى أن "يتناول الحقائق الاجتماعية بوصفها أشياء"، طبقا لوصية دوركهايم، دون أن يفقد كل ما تدين به لحقيقة أنها موضوعات للمعرفة أو للإدراك (حتى لو كان مجرد إساءة - إدراك) ضمن موضوعية الوجود الاجتماعى نفسه" (Bourdieu 1990a: 135 ، ترجمتى؛ راجع كذلك Bourdieu 1989e & 5 : 1987).

(١٣) هذا هو تعريف "التشكيل الاجتماعى" الذى أورده عام ١٩٧٠ بورديو وباسرون (5 : 1977 ، ترجمتى) فى إعادة الإنتاج.

(١٤) يوضح بورديو، وشامبوريدون، وباسرون (Bourdieu, Chamboreden & Passeron (1973 : 329 - 34أن ماركس، ودوركهايم، وفيبر يتفقون، فيما وراء الاختلافات التى تفصل بين نظرياتهم عن النسق الاجتماعى، فى نظرياتهم حول المعرفة السوسيولوجية. فجميعهم يتفقون. بوجه خاص. على "مبدأ عدم - الوعى" الذى يقضى. ضد "وهم الشفافية" الذى يميل إليه كل أعضاء المجتمع عفويا. بأن الحياة الاجتماعية تفسرها أسباب لا يمكن اختزالها إلى الأفكار والمقاصد الفردية. ويشرح بورديو قائلا أنه "إذا كانت السوسيولوجيا بوصفها علما موضوعيا ممكنة" فذلك لأن "الذوات لا تملك مجمل معنى سلوكها كمعلومة مباشرة أمام الوعى وتضم أفعالها على الدوام معنى أكثر مما تعرف هذه الذوات أو ترغب" (Bourdieu et al. 1965: 18 ، ترجمتى).

(١٥) تجرى مناقشة "المغالطة المدرسية" التى تكمن فى قلب ابستمولوجيا البنيوية فى Bourdieu 1990a: 30 41, 1990e ، وفيما يلى، القسم ٢، فصل١.

(١٦) وبصياغة مختلفة فإن: "المعرفة بالعالم الاجتماعى لابد أن تضع فى اعتبارها معرفة عملية بهذا العالم تسبقها فى الوجود يجب ألا تخفق فى إدراجها فى موضوعها حتى إذا كان يجب، كمرحلة أولى، أن تتأسس ضد التمثيلات الجزئية والمتحيزة التى تقدمها هذه المعرفة العملية" (Bourdieu 1984a : 467 ، ترجمتى).

(١٧) يعرف بيرجر ولوكمان (Berger and Luckmann 1966 : 48) البنية الاجتماعية، بشكل نمطى، على أنها "المحصلة الكلية للتنميطات [المقبولة اجتماعيا] وللمنظومات المتواترة للتفاعل التى تتأسس بواسطتها". ويدافع بلامر (Blumer 1969) عن مفهوم مشابه بتعريفه للمجتمع على أنه "تفاعل رمزى". مثلما يفعل جارفينكل حين يؤكد أن "الترتيبات الاجتماعية المنظمة تتكون من مناهج مختلفة لتحقيق قابلية الحساب للطرق التنظيمية لوضع معين وذلك كمهمة منسقة" (33 : 1967 ، التشديد من جانبى).

(١٨) إذا جمعنا بين تعبيرين مشهورين لدينيس رونج (Dennis Wrong 1961) وهارولد جارفينكل (Harold Garfinkel 1967).

(١٩) فى الأنثروبولوجيا، تبلورت هذه التعارضات خلال الستينات والسبعينات فى التضاد الاستقطابى بين الأنثروبولجيا الرمزية جيرتز، وشنايدر، وفيكتور تيرنر، وساهلينز) وبنيوية ليفى - شتراوس (ليتش ، ونيدهام، وماري دوجلاس) من ناحية، وبين الايكولوجيا الثقافية (فايدا. ورابوبورت، ومارفين هاريس) والمقاربات الاقتصادية - السياسية والبنيوية الماركسية (إرْيك فولف، وموريس بلوخ، ومايسوه، وجودولييه، وجوناثان فريدمان وجون ناش) من ناحية ثانية. ويظهر تلخيص شيرى أورتنر (Sherry Ortner, 1984) لـ"السجالات اللاذعة" فى الستينيات بين الأنثروبولوجيين تشابهات مدهشة مع تلك السجالات التى تصيب بانتظام أنصار النوعين الموضوعى والذاتى من الإيديولوجيا (مثلا، منظرى المنظومة والتفاعليين الرمزيين، أو الإيكولوجيين الانسانيين وأنصار التفكيك ما بعد الحداثى فى النظرية الحضرية): "بينما اعتبر الايكولوجيون الثقافيون الأنثربولوجيين الرمزيين ذهنيين مشوشى العقل، منخرطين فى شطحات تفسير ذاتية غير علمية وغير قابلة

للتحقق، اعتبر الأنثروبولوجيون الرمزيون أن الإيكولوجيا الثقافية منخرطة فى علموية عقيمة بلا عقل، تأخذ فى عد السعرات الحرارية وقياس معدل المطر، وتتجاهل عن عمد الحقيقة الوحيدة التى من المفترض أن الأنثروبولوجيا قد أسستها فى ذلك الحين: حقيقة أن الثقافة تتوسط فى كل سلوك إنسانى. وساد المجال الصراع المانوى بين "المادية" و"المثالية"، بين المقاربتين "الصلبة" و"الرخوة"، بين "العلوم emics" التفسيرية و"العلوم ethics"التوضيحية" (راجع ملحق بورديو [1987e] لمقالة أورتنر التى تقدم "نظرية ممارسة" ذات تعريف فضفاض بوصفها التغلب على هذا التعارض).

(٢٠) راجع العدد الخاص من مجلة Anthropologische Verkennungen عن عمل بورديو باعتباره علم ممارسة (Coenen 1989, Mortier 1989, Verboven 1989, Vervaeck 1989).

(٢١) حين سئل بورديو أن يصنف عمله (فى سياق محاضرة فى جامعة كاليفورنيا فى سان دييجو عام ١٩٨٦) اختار (1989e: 14) مصطلح "البنائية البنيويو" الذى أتبعه على الفور بالتحديد المضاد "البنيوية البنائية" لكى يؤكد التمفصل الجدلى للخطتين (الموضوعية والذاتية) فى نظريته. ويطلق أنسار (Ansart, 1990) على هذا الجانب مصطلح "البنيوية التكوينية" genetic structuralism مثلما يفعل هاركر، وماهار، أما ويلكس (Wilkes, 1990:3) فيطلق عليه اصطلاح "البنيوية التوليدية" generative structuralism.

(٢٢) دوركهايم (1966: 32)، يمكن أن نتذكر، كما طرح فى **قواعد المنهج السوسيولوجى** أن "السوسيولوجى يجب ...، سواء فى لحظة تحديد أهداف بحثه أو فى سياق توضيحات، أن ينبذ بحسم استخدام مفاهيم ناشئة من خارج العلم لاحتياجات غير علمية تماما. لابد أن يحرر نفسه من الأفكار المغلوطة التى تحكم عقل الإنسان العادى؛ لابد أن يطرح عنه، مرة وإلى الأبد، نير هذه المقولات الامبيريقية، التى صارت مستبدة نتيجة العادة المستمرة لزمن طويل".

(٢٣) من هنا، فإن رؤية بورديو للمجتمع لو بدت أحيانا قريبة من رؤية الإثنو ـ منهجية أو الأنثروبولوجيا الإدراكية كما يمارسها ستورتيفان Sturtevant أو جودينوف Godenough (راجع تحليل "أشكال التصنيف المدرسى" التى جرى تطويرها فى **نبالة الدولة** La noblesse d Etat)، فإنها تتميز عنهما بأنها ترسى المضامين **والاستخدمات التمايزية للتصنيفات الاجتماعية** على أساس موضوعية البنيات المادية، إلا أن هذه الفجوة بين بورديو وبين الإثنو ـ منهجية قد ضاقت على يد آرون شيكوريل Aron Cicourel (١٩٩٠) الذى، فى عمله الأخير عن عمليات التواصل، يضع فى الاعتبار التوزيع الكامن غير المتكافىء لرأس المال الثقافى. وللاطلاع على محاولة مثيرة للمزاوجة بين جارفينيكل وبورديو، بين الإثنو ـ منهجية ونظرية الهابيتوس، راجع دراسة آلان كولون (١١٩١) Alain Coulon "لممارسات الانتماء بين طلبة الجامعة.

(٢٤) للانصاف، فإن دوركهايم وموس قد أشارا، فى تحليلهما للفكر الصينى (الذى تابعه فيما بعد مارسيل جرانيه Marcel Granet) وفى القسم الختامى لمقالهما، إلى أن التولد الاجتماعى للأفكار يعمل فى تشكيلات أكثر تقدما من المجتمعات القبلية لاستراليا والقارة الأمريكية الشمالية. لكنهما لم يطبقا أطروحتهما الجسورة على مجتمعهما ذاته، أعنى، بالأخص، على فكرهما ذاته. وكما يشير بورديو (11 - 10 : 1982 a) فإن "مؤلف الأشكال البدائية للتصنيف لم يدرك أبدا التاريخ الاجتماعى لنظام المدارس الذى اقترحه فى (تطور الفكر التربوى) على أنه السوسيولوجيا التوليدية لمقولات فهم الأساتذة والتى قدم رغم ذلك كل أدواتها الضرورية".

وفى موضع آخر يكتب بورديو (1967a) أن "نظام المدارس هو أحد المواقع التى يتم فيها، فى المجتمعات المتمايزة، إنتاج أنساق التفكير، التى يبدو أنها المعادل الأكثر تعقيدًا لـ"الأشكال البدائية للتصنيف". وهذا هو السبب وراء اهتمام بورديو بالتعليم: فدراساته لنظام المدارس هى فصول فى سوسيولوجيا السلطة الرمزية معرفة على أنها سلطة فرض أنساق تصنيف تنتج تطبيع بنيات السيطرة وغرسها (راجع بوجه خاص بورديو 1989a، وبورديو وباسرون 1979 : الكتاب الأول).

(٢٥) بالنسبة لكورنيل (Cornell, 1983 : 153) ، يمهد بورديو الطريق أمام "سيكولوجيا اجتماعية واقعية".

(٢٦) كما يقول بورديو (35 1987g : 234) فى تحليله للقانون فإن: "مخططات الإدراك والتقييم الكامنة فى جذر بنائنا للعالم الاجتماعى تنتج عن عمل جماعى تاريخى لكن على أساس بنيات العالم نفسها: بوصفها

بنيات مبنية تاريخيا، فإن مقولات الفكر لدينا تسهم فى إنتاج العالم، لكن فقط ضمن حدود تناظرها مع البنيات الموجودة سلفا" (الترجمة معدلة). وفى موضوع آخر، نجد أن أنساق التصنيف "ليست أدوات للمعرفة بقدر ما هى أدوات للسلطة، خاضعة للوظائف الاجتماعية وموجهة بوضوح بدرجة أو بأخرى إلى تلبية مصالح جماعة ما" (Bourdieu 1984 a : 477 ، الترجمة معدلة).

(٢٧) إن "اختزال ـ السيرورة" المميز للغات الأوربية (وفق ما يقول بنجامين لى وورف Benjamin Lee Whorf)، والتدعيم الذى يلقاه من فلسفات العلم الوضعية، يوضح لماذا "نشعر دائما بأننا مدفوعون لإقامة تمييزات مفهومية لا معنى لها على الاطلاق، مثل "الفرد والمجتمع"، مما يجعل "الفرد و"المجتمع" يبدوان وكأنهما شيئان منفصلان، مثل المناضد والكراسى، أو القدور والقلايات" (Elias 1978a : 113 ; also 1987 , Part 1). ويبدو أن الجذر المشترك لتشديد بورديو وإلياس على اللغة العادية بوصفها عقبة أمام التفكير السوسيولوجى هو كاسيرر، خصوصا تحليله لـ"تأثير اللغة على تطور الفكر العلمى" (Cassirer 1936).

(٢٨) تقول نزعة الفردية المنهجية (وهو اصطلاح صاغه الاقتصادى جوزيف شومبيتر Joseph Schumpeter)بأن كل الظواهر الاجتماعية يمكن مبدئيا شرحها بشكل صارم على أساس أهداف، ومعتقدات، وأفعال الأفراد. وعلى النقيض، فإن مذهب الكل Holism يجادل بأن الأنساق الاجتماعية لها خصائص ناشئة لا يمكن استخلاصها من خصائص أجزائها المكونة وأن الشرح الاجتماعى لابد أن يبدأ من المستوى النسقى. وتعتبر الموقفية المنهجية Methodological Situationalism الخصائص الناشئة عن التفاعل فى موقف بمثابة وحدة التحليل المحورية (Knorr Cetina 1981 : 7 - 15).

(٢٩) ينسب بورديو (1990a : 4; see also 1968b) إلى البنيوية فضل "إدخالها المنهج البنيوى إلى العلوم الاجتماعية، أو، بشكل أبسط، إدخالها نمط التفكير العلائقى الذى، بقطيعته مع نمط التفكير الجوهرى، يقودنا إلى تحديد خصائص كل عنصر بواسطة العلاقات التى توحده مع كل العناصر الأخرى فى نسق يستمد منه معناه ووظيفته" (الترجمة معدلة).

(٣٠) أوضح برتل أولمان Bertell Ollman (14 : 1976) أن "العلاقة هى الحد الأدنى غير القابل للاختزال بالنسبة لكل الوحدات فى مفهوم ماركس عن الواقع. وهذا فى الحقيقة هو جوهر ما نلقاه فى فهم الماركسية، التى ليس موضوعها هو المجتمع ببساطة بل المجتمع المدرك "علائقيا". وقد قدم الفيلسوف اليابانى و.هيروماتسو W. Hiromatsu قراءة" منهجية وكاسيررية تماما لماركس تؤكد على ذلك (راجع الحوار بين بورديو، وهيروماتسو وإيمامورا Imamura [1991]) . وللوقوف على عينة من التقاليد البنيوية المتصلة من ماركس إلى ليفى ـ شتراوس راجع : De George and De George 1972.

(٣١) بورديو (1987g : 248) . هكذا فإن ما يسميه صامويلسون Samuelson باسم: "تأثيرات التكوين" وبودون Boudon باسم: "التأثيرات ضد ـ الحدسية" (وهما اسمان لتحديد عواقب الفعل غير المقصودة) هما فى الحقيقة تأثيرات بنيوية للمجالات يمكن ويجب كشف منطقها النوعى امبيريقيا فى كل حالة معينة. ولتوضيح كيف يحدد تشكل المجالات التأثيرات النهائية للقوى والتغيرات الخارجية (خصوصا التغيرات المورفولوجية)، راجع بورديو 1987f , 1987i , 1988a ، وبورديو ودى سان مارتان 1982، بالنسبة للمجال الفنى، ومجال الجامعة، ومجال مدارس النخبة، والمجال الدينى على الترتيب. ومن أجل المزيد من الأمثلة التاريخية راجع Charles 1990, Fabiani 1989, Viala 1985 .

(٣٢) لاحظ أن مجال السلطة (انظر بورديو 1989 a بورديو و فاكان 1991) لا يقع على المستوى نفسه مع المجالات الأخرى: (الأدبى، الاقتصادى، العلمى، مجال بيروقراطية الدولة، إلخ) حيث أنه يشملها جزئيا. ويجب التفكير فيه بالأحرى بوصفه نوعا من "الميتا ـ مجال" له عدد من الخصائص الناشئة والنوعية.

(٣٣) الهابيتوس "يعبر أولا عن نتيجة عمل منظم، بمعنى قريب من معنى كلمات مثل البنية، كذلك فإنه يشير إلى نمط وجود، إلى حالة معتادة (للجسم خصوصاً) وبالأخص، إلى استعداد، ميل، نزوع، أو توجه" (بورديو 1977 a : 214) .

(٣٤) يفسر مورتير Mortier (1989) عمل بورديو على أنه إعادة تعريف للإشكالية البنيوية بطريقة منشغلة ـ بالفعل، مما يؤدى إلى علم ممارسة يعمم نظرية أفعال الكلام لتشمل السلوك الطقسى.

(٣٥) "الجسد موجود فى العالم الاجتماعى لكن العالم الاجتماعى موجود فى الجسد" (بورديو 38 : 1982a). قارن مع ميرلو ـ بونتى (401 : 1962): "الداخل والخارج لاينفصلان بكاملهما. فالعالم فى الداخل بكامله وأنا بكاملى خارج نفسى". ومن هذا المنظور، نجد أن مشروع بورديو، على الرغم من ذلك، هو النقيض الكامل لمشروع السوسيولوجيا التفسيرية كما عرفها ريكور (158 : 1977 Ricoeur): "إن مهمة السوسيولوجيا التفسيرية هى إرساء.. "الموضوعية" على أرضية الطبقة قبل ـ الموضوعية للخبرة بين ـ الذوات وتوضيح كيف أن الاستقلال الذاتى للموضوعات التى تتعامل معها السوسيولوجيا ينبع من هذه الدائرة قبل ـ الموضوعية". وبالنسبة لبورديو، لابد للسوسيولوجيا أن تشمل الفنومنولوجيا ليس عن طريق إزاحتها جانبًا، بل عن طريق إرساء ما بين ـ الذوات على أساس بنيات موضوعية تاريخية عن طريق التحليل التوليدى لتأسس الهابيتوس. وبمراكمة الاستشهادات من ميرلو ـ بونتى لتوضيح منطق الحس العملى، فإننى أود الإيحاء بأن بورديو هو وريثه السوسيولوجى، ولو أنه وريث يجدد بطرق لا تتمشى أحيانا مع كل من روح ونص عمل الفنومنولوجى. وبوجه خاص، يتجاوز بورديو الإدراك ذاتى النزعة للحس العملى ليتقصى التولد الاجتماعى لبنياته الموضوعية وشروط عمله.

(٣٦) "بوصفها ألفة الشخص الأساسية، اللا انعكاسية مع العالم، فإن العادة هى الشرط المسبق للتحديد القصدى لمختلف موضوعات المعرفة... وهى ليست "استجابات" مبرمجة ولا سلوكات روتينية: العادة هى الحساسية المتجسدة لعالم حساس، وفى هذا الصدد فإنها تتيح مجالا من الإمكانات السلوكية فى الخبرة" (Ostrow 1990: 10).

(٣٧) يمكن أيضاً توضيح هذا الوجود ـ المشترك الفورى والتفاهم المتبادل للجسم والعالم بمثال المطرقة الشهير الذى قدمه هايدجر فى **الوجود والزمان**: فالاستخدام الكفء لمطرقة يفترض سلفا أكثر وكذلك أقل من الإدراك الواعى لأداتيتها؛ إنه يتضمن إجادة لوظيفتها النوعية بدون معرفة مفردة thematic ببنيتها. والتوضيحات الامبيريقية لتلك الإجادة العملية يقدمها بحث سودونوف (Sudonow 1978) الاثنو ـ منهجى فى منطق الارتجال فى الجاز، وتحليل لورد (Lord 1960) لتدريب **الجوسلار** (المنشد اليوجسلافى) على فنون الارتجال الشعرى، وأنثروبولوجيا ليف (Lave 1989) لاستخدامات الرياضيات فى الحياة اليومية، واثنوجرافيا فاكان (47: 1989a) (62 لاكتساب تقنية الملاكمة.

(٣٨) "العادات هى ميراثنا فى مجال زمنى؛ ومن خلال أدائها يتجسد عيانيا كل من الماضى، والحاضر، والمستقبل" (Kestenbaum 1977:91).

(٣٩) لابد أن يحاذر المرء هنا كى لا يخلط بين مقولة ميرلو ـ بونتى للمجال، التى تشير فقط إلى ملعب الكرة (terrain بالفرنسية) وليس لها مكانة نظرية، وبين مفهوم بورديو (champ).

(٤٠) راجع "شيطان التناظر" (Bourdieu 1990b: 200-70) لجدال جياش ضد المنطق المفرط وضد السعى إلى تماسك أنثروبولوجى حيث لا يوجد. وكما جادل دون ليفين (Don Levine 1985:17) فإن، "تحمل الالتباس يمكن أن يكون مثمرا إذا لم يؤخذ مسوغًا للتفكير الصبيانى بل دعوة للتعامل بمسئولية مع موضوعات بالغة التعقيد".

(٤١) فى مواجهة أولئك الذين يشكون من أن مفاهيمه "غائمة" (مثلاً Joppke [1986]، والذين يرون أن الهابيتوس هو "وحش مفهومى يطبق عادة بطريقة غائمة ومجازية")، يمكن لبورديو أن يجيب، مع فتجنشتين (1980:653)، بأنه "إذا كان مفهوم ما يعتمد على منظومة حياة، فلابد إذن أن يوجد به قدر من عدم التحدد".

(٤٢) كذلك يوحى الثنائى المفهومى للهابيتوس والمجال بمخرج ممكن من أوجه عدم اليقين المتواترة وأوجه الضعف الداخلية فى "نظرية الدور" (Wacquant 1990b).

(٤٣) الفرق بين بورديو وهذه الأخيرة لا يكمن فيما إذا كان الفاعلون يقومون باختيارات، كما يتم الجدال أحيانا بالتقديم الفظ لمنظوره على أنه شكل ميكانيكى من البنيوية، كما يأسف فان باريس (Van Parijs)، أحد ممثلى

"الماركسية التحليلية". فبورديو لا ينفى أن الفاعلين يواجهون خيارات، ويقدمون مبادرات، ويصنعون قرارات. وما يجادل فيه هو أنهم يفعلون ذلك بالطريقة الواعية، المنهجية، والقصدية (**الذهنية النزعة**، باختصار) التى يطرحها منظرو الاختيار ـ العقلانى. وهو يصر على العكس على أن اتخاذ القرار القصدى أو اتباع القاعدة "ليس أبدًا سوى أمر متعجل يستهدف التغطية على حيودات الهابيتوس (Bourdieu 1972: 205).

(٤٤) وهكذا، فبالنسبة للاش وأورى (Lash & Urry 1987: 293)، نجد أن "زعم بورديو المحورى هو أننا لا نستهلك منتجات بل رموزا **بقصد** إقامة تمييزات "(التشديد لى؛ راجع كذلك إلستر Elster 1984a). وبطريقة بورديو على أنها تحليل "**للمصلحة الذاتية والحسابات** التى تتيح أفضل طريقة للبقاء رغم المنافسة على الموارد والجوائز" (التشديد لى).

(٤٥) ها هو ذا مثال واحد على هذا الاختزال النفعى: فطبقا لتفسير أورى وسيرينللى (Ory & Sirinelli 1986: 229) لـ **الإنسان الأكاديمى**، نجد أن بورديو "يستنتج أن الاستراتيجيات المهنية، وبشكل أوسع، المصالح خارج ـ الأخلاقية تسود على التعليلات العلمية والأخلاقية، فى إطار عالم من النزاعات تنيخ عليه التبادلات المتعددة للخدمات وشبكات السيطرة التى تكسو كل شىء". وثمة مثال آخر هو اختزال ويبلر (Wippler) لرأس المال الثقافى المتجسد إلى "نوع خاص من رأس المال البشرى" على طريقة بيكير Becker، مما يدمر فعليا منطق معمار بورديو النظرى.

(٤٦) راجع تحليل بورديو (1979d) لاستراتيجيات الشرف للوقوف على مثال امبيريقى. وهذا المفهوم لـ"استراتيجية بدون استراتيجى" ليس بعيداً عن مفهوم فوكوه (راجع Dreyfus & Rabinow 1983: 187)، إلا فى أن الأخير يفتقر إلى مفهوم الهابيتوس الاستعدادى ليربط البنيات الموضوعية التى يورثها التاريخ بالممارسات التاريخية للفاعلين، ومن ثم، يفتقر إلى آلية تفسر الانتظام الاجتماعى والمعنى الموضوعى للاستراتيجيات.

(٤٧) "الحقائق الاجتماعية الكلية "هى حقائق" تحرك فى بعض الحالات كل المجتمع ومؤسساته.. وفى حالات أخرى عدداً كبيرا جدا من المؤسسات "التى تتبع النظم القضائية، والدينية، والاقتصادية، والجمالية، والمورفولوجية (Mauss 1950c : 274 - 75). وهذا المفهوم مفيد فى إشارته إلى ضرورة نبذ مقاربات الملاحظة الضيقة، متصلبة التقسيم، لكنه يمكن أن يكون خطرا هو نفسه حين يدفع إلى نوع من "نزعة الكل" الفضفاضة المستخدمة بمثابة غطاء على الافتقار إلى البناء الصارم للموضوع.

(٤٨) يردد بورديو صدى تحذير أطلقه ميللز (Mills 1959 : 71 - 72) منذ نحو ثلاثين عاماً: "أولئك الواقعون فى قبضة الكبت المنهجى عادة ما يرفضون قول أى شىء عن المجتمع الحديث ما لم يمر من خلال الطاحونة الدقيقة الصغيرة **للطقس الإحصائى**".

(٤٩) بصرف النظر عن الاختلافات البدهية فى القاموس واللهجة، فإن هناك أوجه تشابه عديدة بين موقف بورديو ونقد النزعة المنهجية "من دارها" الذى قدمه ستانلى ليبرسون فى Stanley Lieberson (1984) Making it Count .

(٥٠) ويمضى بورديو (10 - 1989a) ليقول: "إن أكثر التقنيات أولية لسوسيولوجيا العلم ستكون كافية للبرهنة على أن أوجه الشجب التى يتهم بها إثنو ـ منهجيون معينون السوسيولوجيين، الذين تتم ببساطة وبصورة خالصة المطابقة بينهم وبين طريقة واحدة لإدراك العلم الاجتماعى، سائدة دون شك فى المؤسسة الأمريكية، [أوجه الشجب هذه] ندين لقدرتها على الاستنفار إلى حقيقة أنها تمكن سوسيولوجيين عديدين من الرفض الانتقائى لأوجه قصور معينة فى تدريبهم. كما أنها تكشف كذلك أن احتقار عديد من المنهجيين لأى شىء يحيد بأدنى درجة عن المعايير الضيقة التى أقاموها بمثابة مقياس مطلق للصرامة عادة ما يفيد فى وضع قناع على التفاهة الروتينية لممارسة مفتقرة إلى الخيال وخالية فى كل الحالات تقريبا مما يمثل دون شك الشرط المسبق الحقيقى للصرامة الحقيقية: أعنى النقد الانعكاسى لتقنيات البحث وخطواته".

(٥١) مثلما هى الحال عادة فى مشروعات البحث واسعة النطاق فى الولايات المتحدة، حيث يتحول الطلبة الخريجون إلى الوحيدين الذين لهم أى اتصال مباشر بموضوع بحث الأساتذة الذين يعملون لديهم. وبالمقابل، فإن

بورديو، إلى يومنا هذا، يقوم بالكثير من الملاحظات الميدانية، وإجراء الحوارات، والتحليل التقنى الذى يدخل فى كتاباته ذاتها. والتقرير عن تنظيم الدراسة وتطبيقاتها الضخمة (من خلال عمليات المسح، والحوارات المعمقة، والاثنوجرافيا، والرجوع إلى الأرشيفات) عن مدارس النخبة التى قام بها هو ومعاونوه فى الستينات والثمانينات (Bourdieu 1989a: 331 - 51) يعطى فكرة جيدة جدا عن الترجمة العملية لمبدأ بورديو فى الانتباه المنهجى. وللوقوف على دراسة امبيريقية مثيرة جدا للاهتمام، عن العيوب الضخمة، التى تخلقها المسافة الاجتماعية بين المنهجيين (الكميين) والمحاورين، بين ما يظن الأولون أنه ينجز فى عملية مسح وما يفعله الأخيرون فعلا فى الميدان فى معهد المسح الفرنسى الرئيسى، راجع بينيف (Penef 1988)؛ وراجع ميرلييه (Merli 1983) لمثال آخر. وفى فرنسا قام Jean Michel Chapouli، و Dominique Merli، و Laurent Th venot، وAlain Desrosi res بتحليل نقدى لإنتاج الإحصاءات البيروقراطية من وجهة نظر متأثرة ببورديو.

(٥٢) يكتب كومت فى المجلد الأول لكتابه Cours de Philosophie Positive (ويستهل هذا الاستشهاد عمل بورديو **مهنة السوسيولوجى** Le m tier de sociologue) قائلا: "المنهج لا يصلح لدراسته منفصلا عن البحث الذى يستخدم فيه؛ ولو كان كذلك، فمثل هذه الدراسة هى دراسة ميته (tude morte)،عاجزة عن إخصاب الذهن الذى يكرس نفسه لها. وكل ما يمكن أن يقال عنها، حين تؤخذ بشكل مجرد، يختزل إلى عموميات يبلغ من غموضها ألا تستطيع التأثير على النظام العقلى". وهذا أيضا أحد تعاليم تأريخ جورج كانجيليم Georges Canguilhem للعلم الطبى، الذى مارس تأثيرا تكوينيا هاما على ابستمولوجيا بورديو. وفى الولايات المتحدة، دافع أبراهام كابلان (Abraham Kaplan 1964:12) عن موقف مماثل بتشديده على الفرق بين "المنطق المشيد" و"المنطق ـ أثناء ـ الفعل": "إن القوة المعيارية للمنطق [المشيد] لاتحسن بالضرورة المنطق ـ أثناء ـ الفعل". أولا، لأن المنطق المشيد يركز على ما لا يفعله العالم على حساب ما يقوم به فعلا؛ وثانيا، لأنه يميل إلى إضفاء الطابع المثالى، فى مقابل الوصف، على الممارسة العلمية.

(٥٣) إن جهد ريتزر (Ritzer 1990a) من أجل "تشفير الميتا ـ نظرية وتقويتها" (بوصفه بلوغ فهم أعمق للنظرية، وخلق نظرية جديدة، أو تطوير منظورات نظرية شامخة) يتقدم على نحو مميز فى استبعاد تام ومتعمد عن العالم الواقعى وعن هموم البحث. كذلك يختلف مفهوم بورديو عن علاقة النظرية والبحث أيضا عن مفهوم جيدينز (Giddens 1990a: 310 J 11; also 1989) الذى يصر على "الاستقلال الذاتى النسبى" للنظرية عن البحث ويدافع عن قمة العمل المفهومى والأنطولوجى فى ذاته. ويقدم ألكسندر (Alexander 1987a, 1990) دفاعا حارا آخر عن مركزية "الخطاب النظرى المعمم".

(٥٤) اليوم، تبدو المهنة السوسيولوجية منظمة فى الولايات المتحدة بحيث أن الاعتراف بأن المرء "منظر"، يبدو أنه تفويض فعلى له بأن لا يقوم بالبحث الامبيريقى وبأن يركز على كتابة أطروحات مليئة بالمصطلحات وعويصة تماما حول المفاهيم والنظريات الأخرى. وقد عبر سيتنشكومب (Stinchcombe 1986: 44-45) بصورة لاذعة عن العلاقة بين مستوى تجريد الخطاب، أو بعده عن ابتذالات العالم الواقعى، وبين المكانة المهنية (أو الأستاذية) للمنظر: "إن أكثر النظريات انفصالا عن الدم، والعرق، والدموع هى التى تتمتع بأرقى منزلة".

(٥٥) يضيف سيكا (Sica 1989:230): "افحص المجلات التى تحظى بأقصى تقدير بين أعضاء الطائفة وفى ذهنك الالتفات إلى أية مجموعات من الأفكار، التى يطلق عليها بشكل فضفاض لفظ "نظرية، ترتبط، ولو بلاغيا، بمنظومات البيانات والمناهج الضرورية للحصول على نتائج محترمة.. معظم هذه المقالات إما أنها **لا نظرية بشكل صريح**.. أو أنها، وهذا **أسوأ، نظرية بشكل تجميلى** "التشديد لى". كذلك فإن راندل كوللينز (Randal Collins 1988: 494)،وهو مراقب مدقق آخر للمشهد السوسيولوجى الأمريكى، يقرر ذلك أن "هناك عداء ملحوظا بين ما يعد الجانب المنهجى ـ الكمى للمجال والجانب النظرى ـ الكيفى. وفضلا عن ذلك، يميل ممارسو هذا التخصص أو ذاك إلى الاستقرار فى شبكات ثقافية مختلفة، ومن ثم إلى إدانة موقع بعضهما غيابيا، دون أن يعرفوا الكثير عنه". كذلك يلاحظ كولمان (Coleman 1990b: Chap1) الهوة المستمرة والمتزايدة بين النظرية والبحث (رغم أن تشخيصه لجذورها مختلف تماما).

(٥٦) "يذكرنا ماكس فيبر بأن التطور الأعظم، فى فن الحرب، قد نشأ، ليس فى الابتكارات التقنية، بل فى التحولات فى التنظيم الاجتماعى للمحاربين، مثلما على سبيل المثال فى حالة ابتكار الكتيبة المقدونية. ويمكن

للمرء، متبعا الخط نفسه، عما إذا لم يكن لتحول فى التنظيم الاجتماعى للإنتاج والنقل العلميين، وبالأخص، فى أشكال التوصيل والتبادل التى ينفذ من خلالها الضبط المنطقى والامبيريقى، أن يكون قادرا على الإسهام فى تقدم العقل العلمى فى السوسيولوجيا، وذلك بقدر أقوى من تحسين تقنيات جديدة للقياس أو من التحذيرات التى لا تنتهى والنقاشات "قبل ـ الافتراضية" للابستمولوجيين والمنهجيين" (بورديو 1989f).

(٥٧) وبالمثل، بالنسبة لميللز (75 :1959)، فإن النظرية الكبرى والنزعة الامبريقية المجردة "يمكن فهمهما على أنهما تؤكدان أننا لانتعلم الكثير عن الإنسان والمجتمع ـ الأولى بالاستغلاق الشكلى والضبابى، والثانية بالبراعة الشكلية والفارغة".

(٥٨) والتى يؤكدها تقسيم عرض ميرتون (Merton 1968: Chaps. 485) إلى فصلين كأنهما صورة ـ مرآة، هما "أثر النظرية السوسيولوجية على البحث الامبيريقى" و"أثر البحث الامبيريقى على النظرية السوسيولوجية".

(٥٩) يلاحظ آلان سيكا (231, 230, 228 :1989) ما يلى بصدد الغياب الكامل للهموم النظرية بين الباحثين: "إن أولئك الذين يغازلون منافع البحث الروتينى لا يمكنهم تحمل تشتتيت انتباههم بالتمهل أما التعقيد اللفظى. فلابد أن يحسنوا التصرف فى وقتهم وطاقتهم، ولهذا فإن التنظير المل إذا لم يستطع مساعدتهم بشكل مستقيم على تحسين الكفاءة والإنتاجية، ولو بمقدار، فإنه إما أن يتم تخفيفه إلى شكل أكثر قابلية للتصرف فيه وإما أن يتم إلقاؤه برمته.. وبالنسبة للسوسيولوجى العادى الذى تحرج منذ بضع سنوات من الكلية ويسعى سعيا حثيثا إلى المنح، فإن العلاقة بين النظرية (أو "الأفكار")، والمكونات الأخرى لطلب منحة ناجح ليست مزعجة جدا.. فالجميع يعرفون أن السؤال الأول، **الأول بين أقرانه** Primus inter Pares، هو كيفية الحصول على نقود من أجل البحث.. فى نهاية المطاف، فإن التقنية قابلة للبيع.. وغالبا لصالح البحث عن منحة، ما ننزع أحشاء أنفسنا".

وهذا واضح بوجه خاص فى قطاع من المجال السوسيولوجى مثل أبحاث الفقر (إنها رواسب فكرية حيث ما زالت نظريات ومقاربات انتفت قيمتها منذ زمن طويل فى المناطق الأكثر تقدما للمجال مثلا، "ثقافة الفقر"، والمفاهيم المعيارية للفعل، أو الانشغال الأخلاقى "بالباثولوجيا ـ الاجتماعية" ـ توجه البحث ووصفات السياسة، بقدر ما تظل باقية فى المراجع الجامعية التى تنتج على نطاق واسع) وسائدة بالنسبة للسلطة الأكاديمية (إذ إنها تستلزم تمويلاً ضخما وتكون مواتية بدرجة كبيرة للبيروقراطيات الأكاديمية: يشهد على ذلك الوباء الراهن لبرامج البحث حول " الطبقات التحتية الحضرية" التى تمولها مختلف المؤسسات البارزة).

(٦٠) "أى عمل علمى، مهما كانت نقطة انطلاقه، لا يمكن أن يصبح مقنعا تماما حتى يعبر الحد بين ما هو نظرى وما هو تجريبى" (4 3 :1984 Bachelard). وحول هذه النقطة، راجع أيضا (Quine 1969).

(٦١) "إذا كانت عمليات الممارسة تستحق ما تستحقه النظرية التى تؤسسها، فذلك لأن النظرية تدين بموقعها فى مراتبية العمليات لحقيقة أنها تجسد الأولوية المعرفية للعقل على الخبرة" (88 :1973 بورديو، وشامبوريدون، وباسرون).

(٦٢) (Brubaker 1989a). إن كون نظرية بورديو نتاج هابيتوس عملى نشيط، فاعل، يجعلها غير مناسبة بوجه خاص للقراءات التنظيرية أو الشروح المفهومية (وهذا فرق آخر بين "منهجه" وبين نظرية البنينة لدى جيـــدينز). وللوقوف عـــلى مثال آخر على كيف يمكن لذلك التفسير التنظيرى لعمل بورديو أن يشوهه، راجع (Wallace 1988)، الذى يتمكن من أن يقرأ فيه نظرية فى المعايير والعدوى النفسية، وانشغالا بجدل البنيات الاجتماعية والثقافية التى تدرك على أنها متغيرات سببية ـ توضيحية قابلة للانفصال على نحو مفرط فى الوضعية. وطابعها غير المتمحور حول الكلمة يوضح أيضا لماذا لم يظهر بورديو ذلك "الانشغال الوسواسى" بتحقيق معنى لا يحتمل اللبس فى مفاهيمه أو الاهتمام بالتحديد النوعى، والكمى، وبالتوضيح وهى الأمور المميزة لنظرية ميرتون عن المدى المتوسط (101 - 98 :1986 Sztompka).

(٦٣) من بينها، مزاعم جارفينكل والإثنو ـ منهجية، ومزاعم "الإثنوجرافيا بوصفها نصا" الشائعة فى الأنثروبولوجيا (Maraus, Tyler, etc. Clifford,)، ومزاعم تيارات فى "الدراسات الاجتماعية للعلم" يقودها ديفيد بلور وستيف وولجار (David Bloor & Steve Woolgar)، ودعاة السوسيولوجيا "مابعد الحداثية" أمثال بلات

وآشمور Platt & Ashmore، وAlvin Gouldner آلفين جولدنز، وبينيت بيرجر Bennett Berger، وأنتونى جيدنز Anthony Giddens، والفنومنولوجى النقدى جون أونيل John O Neill. أما مختلف معانى الانعكاسية واستخداماتها فى العلم، والفنون، والإنسانيات، فقد أوردها مالكوم آشمور Malcom Ashmore (1989: Chap2) فى "موسوعة الانعكاسية والمعرفة" (رغم أن الشكل "التجديدى" عن قصد و"الابتكارى الزاعق" [هكذا] الذى يضفيه على قائمته غالبا ما يجعل المفهوم أعوص بدلاً من أن يوضحه).

(٦٤) حول التفرقة بين الانعكاسية الباطنية والانعكاسية المرجعية فى الإثنو ـ منهجية، راجع العمل المهم لبولنر Pollner (1991)؛ راجع كذلك (82 278 :) Collins 1988.

(٦٥) " يميل العلم الاجتماعى إلى " الاختفاء" فى الوسط الذى يدور حوله هذا العلم ... [و] له تأثير بالغ القوة على نفس تأسيس ذلك الوسط "(197 : 1987 Giddens). وهذا المفهوم " للتأويل المزدوج" مشابه لطبعة معممة لمقولة بورديو حول" تأثير ـ النظرية".

(٦٦) ومؤخرا، جعل جيدنز (45 36 36 : 1990b، والاستشهاد السابق)الانعكاسية خاصية مميزة للحداثة. والانعكاسية هنا معرفة على أنها "حقيقة أن الممارسات الاجتماعية يجرى باستمرار فحصها وإصلاحها على ضوء المعلومات الواردة عن تلك الممارسات ذاتها ،وبذلك يتعدل طابعها تكوينيا.

(٦٧) " ستكون المهمة التاريخية لسوسيولوجيا انعكاسية ... هى تغيير السوسيولوجى، التغلغل بعمق فى حياته اليومية وعمله، مثرية إياهما بحساسيات جديدة، ورفع الوعى ـ الذاتى للسوسيولوجى إلى مستوى تاريخى جديد" (Goubiner 1970 : 489).

(٦٨) " تتطلب الانعكاسية " أنا" دون حاجة إلى اعتذارات " هكذا يقول بيرجر 236 q1, also 220 :1981) (39."تمر جذور السوسيولوجيا من خلال السوسيولوجى بوصفه إنسانا كليا"، و"السؤال الذى لابد أن يواجهه، إذن ، ليس مجرد كيف يعمل بل كيف يحيا "، وفى هذا صدى جولدنر (489 : 1970). هذا التحول الوجودى، شبه ـ الخلاصى، يفسح المجال لنوع من الطائفية Communalism المعرفية حين يزعم جولدنر(494 : ibid) أننا يجب " أن نقر بصورة متزايدة بعمق قرابتنا مع أولئك الذين ندرسهم ... فكل الناس مشابهون من الناحية الأساسية لأولئك الذين نعترف عادة بهم بوصفهم (زملاء) مهنيين".

(٦٩) يحذر جولدنر (512 : 1970)" ليست فقط القوى الخارجية بالنسبة للحياة الذهنية بل كذلك تلك الداخلية بالنسبة لتنظيمها ذاته والكامنة فى ثقافتها الفرعية المميزة، هى ما يؤدى بها إلى خيانة التزاماتها" لكنه بدلا من الدعوة إلى تحليل لتلك العوامل "الداخلية" (ولو كانت معرفة بشكل فضفاض وضيق على أساس "الثقافة الفرعية")، ينتقل على الفور إلى جلد "الأكاديميين والجامعة" لكونهم "هم أنفسهم فاعلين نشيطين وراغبين فى نزع إنسانية هذا العالم الأكبر".

(٧٠) "إن عجز كل من الفلسفة والعلم الاجتماعى عن فهم الممارسة... يكمن فى حقيقة أنه، مثلما يضع العقل لدى كانط مبدأ أحكامه ليس فى ذاته بل فى طبيعة موضوعاته، فإنه التفكير المدرسى للممارسة يضع ضمن الممارسات العلاقة المدرسية بالممارسة (بورديو 5 :1983a). وفى خطاب حديث، يمضى بورديو (382 : 1990e) إلى حد طرح أن "ثمة نوع من عدم التوافق بين تفكيرنا المدرسى وبين هذا الشىء الغريب الذى تمثله الممارسة. وأن نطبق على الممارسة نمطا من التفكير يفترض سلفا أن نضع بين أقواس الضرورة العملية واستخدام أدوات تفكير مبنية ضد الممارسة... يعنى أن نمنع أنفسنا من فهم الممارسة بوصفها كذلك". ويمثل نظرية الفعل العقلانى (مثلا، Colema 1986; Elster 1984a) خلاصة هذه المغالطة الثقافية النزعة التى تُشيئ نماذجها مفرطة العقلانية للفعل و"تحقنها" فى عقول الفاعلين، وبذلك تعوق البحث فى العقلانية العملية الفعلية المحايثة لسلوكهم (Wacquant & Calhoun 1989: 43,53 - 54).

(٧١) ومن هنا أختلف مع سكوت لاش (Scott Lash 1990:259)، الذى يعتبر أن "انعكاسية بورديو يبدو أنها أقرب إلى هذا النوع".

(٧٢) طوال العقد المنصرم، يجادل هؤلاء الأنثروبولوجيون" ما بعد الحداثيين"، بأن نقد الكولونيالية والتنظير بصدد حدود التمثيل (وخصوصا التفكيك) قد دمرا سلطة التقارير الاثنوجرافية وكشفا الاثنوجرافيات على أنها أداءات بلاغية، تمثيلات" مؤقتة بالضرورة، وتاريخية، وقابلة للجدل "تعتمد جاذبيتها واستحسانها، فى النهاية، على مواضعات أدبية (Clifford & Marcus 1986). وتشير الانعكاسية النصية إلى مقولة أن "النصوص لا تقرر ببساطة وشفافية نظاما مستقلا للواقع" لكنها هى ذاتها "منهكمة فى عمل بناء ـ الواقع" (Atkinson 1990:7 للوقوف على أمثلة، راجع):

Spencer 1989 for a Critical Survey, & Marcus & Cushman 1982, Clifford & Marcus 1986, Geerte 1987, Tyler 1987, & Van Maanen 1988.

(٧٣) يجادل بارنارد (71 ,58 : 1990) بأن بورديو "قد أوضح كيف يمكن للانثوجرافيا أن تكون انعكاسية دون أن تكون نرجسية أو غير نقدية" وأنه يقدم "طريقا للخروج من الطريق المسدود الذى خلقه لأنفسهم الاثنوجرافيون ومنظرو الاثنوجرافيا ! !

(٧٤) تبدو الفجوة بين الانعكاسية المعرفية والانعكاسية النصية واضحة إذا قارنا الاستنتاجات الأساسية لعمل رابينو تأملات فى العمل الميدانى فى المغرب وعمل روزالدو الثقافة والحقيقة بتصدير بورديو لكتاب منطق الممارسة. فعودة رابينو إلى خبراته الميدانية تتمحور حول الذات فى تعامله مع الآخر وعلى البعد الأخلاقى المتضمن فى فعل اختراق كون ثقافى أجنبى. وهما، فى تشبثهما بالتفاعل بين الملاحظة والمشاركة، يبديان انشغالا مؤرقا بـ" الأصالة"، مما يؤدى إلى استنتاج أن "كل الحقائق الثقافية هى تفسيرات، وتفسيرات متعددة الأصوات، وهذا يصدق على كل من الأنثروبولوجى ومن يقدم له المعلومات". (Rabinow 1977: 151). وبالمثل، بالنسبة لروزالدو، فإن "المحللين الاجتماعيين يجب أن يستكشفوا من يدرسونهم من مواقع متعددة"، خصوصا حين ينتمى الأفراد "إلى جماعات متعددة، متداخلة.. وهكذا يصبح التحليل الاجتماعى شكلا علائقيا من الفهم ينخرط فيه كلا الطرفين بنشاط فى "تفسير الثقافات". أما بورديو فيرفض هذا الدمج بين تفسيرات الاثنوجرافى وتفسيرات ابن البلد، ولا تهمه "الأصالة". وبدلا من أن ينضم إلى روزالدو (Rosaldo 1989: 69) فى الصياح بالعبارة المبتذلة القائلة بأن "ما من مراقب برىء ولا كلى المعرفة"، فإن ما يريده هو التنظير لحدود المعرفة الأنثروبولوجية.

لا يضع رابينو فى اعتباره مطلقا التشويه المتضمن فى الانفصال بين قصده التأويلى والمشاغل العملية لمن يـــقدمون له المعلومات. وكشفه للعمل الميدانى بوصفه "عملية بناء بين الذوات لأنماط قبل ـ شـــعورية للتواصل" (Rabinow 1977: 155 يشير إلى أنه، مثل روزالدو، قد وقع فى الفخ المدرسى المتمثل فى رؤية الانثروبولوجى وابن البلد منخرطين سويا فى التفسير (وعلى الرغم من أن بعض مقاطع حكايته تظهر وعيا عابرا بأنهم "قد تمثلوه إدراكيا بوصفه رصيدا" فى استراتيجياتهم العملية الخاصة فإن رابينو [29 : 1977] يدرك من يقدمون إليه المعلومات على أنهم أساسا أصدقاء موجودين لمساعدته فى مهمة تأويلية).

(٧٥) لمقارنة مستبصرة لأنثروبولجيا بورديو وليفى ـ شتراوس ومفاهيمهما المتقابلة للممارسة الإنثوجرافية، راجع Barnard 1990. ولمقارنة بين بورديو وجيرتس Geertz، راجع Lee 1988 .

(٧٦) راجع العمل المستمر على هذا اللغز الامبيريقى لدى بورديو (1990a , & 158 96 :1977a, 1973d, 1972 200 :275, especially the synoptic diagram on page 215).

(٧٧) تمنعنا اعتبارات الحيز من مناقشة التهم المضادة الكلاسيكية الثلاثة التى عادة ما تثار ضد إمكانية أو مرغوبية الانعكاسية: وهى النرجسية، واللاجدوى، والرجوع إلى ما لا نهاية regressio ad infinitum مما يؤدى إلى التناقض الذاتى، والإنانة solipsism، أو النسبية الادراكية الجذرية (Bloor 1976, Berger 1981: 222, Ashmore 1989, Wodgar 1988) وحقيقة أن أى ناقد لم يثر هذه التهم حتى الآن توحى بأن أيا منها لا ينطبق على بورديو بطريقة مستقيمة. والحقيقة، أن عروض الإنسان الأكاديمى، عمله الرئيسى حول الانعكاسية المعرفية ونموذجها، قد ضلت فى الاتجاه المعاكس بالضبط. فعادة ما تناول هذه العروض الموضوع الظاهرى للكتاب (الجامعة الفرنسية، أزمة مايو ١٩٦٨)، متجاهلة توضيحه المنهجى والنظرى الأعمق. كذلك يشكو الكثيرون من

أن الكتاب لايتضمن سوى القليل من المعلومات حول الخبرة الشخصية لمؤلفه فى الأكاديميا، أعنى، أن بورديو نرجسى بدرجة غير كافية. أما مسألة لاجدوى أو مجانية الانعكاسية فتعالج فى (بورديو وفاكان ١٩٨٩، وفى القسم ٢، فصل٦).

(٧٨) "بغرض البقاء سيدة ومالكة لنفسها وحقيقتها الخاصة، وغير راغبة فى أى حتمية بخلاف تحديداتها ذاتها (حتى لو سلمت بأن هذه التحديدات قد تكون لا واعية)، فإن النزعة الانسانية الساذجة المودعة فى كل شخص تعتبر اختزالا اجتماعيا أو "ماديا" أى محاولة لإثبات أن معنى أشد الأفعال شخصية وأشدها "شفافية" لا تنتمى إلى الذات التى تنجزها بل إلى النسق الكامل للعلاقات التى فيها ومن خلالها تنجز نفسها".

(Bourdieu, Chamboredon, & Passeron 1973: 32).

(٧٩) كما كتب دوركهايم (1965) فى **الأشكال الأولية للحياة الدينية**: "ليس صحيحا على الإطلاق أننا نصبح أكثر فردية كلما أصبحنا أكثر فردية... فالعنصر الجوهرى للشخصية هو جانبنا الاجتماعى".

(٨٠) يعترف بورديو (1991a: 15) بسهولة: "لم أكن أبدا عضوا سعيدا فى الجامعة ولم أعرف أبدا دهشة المنذور المسحور، حتى فى سنوات الاستهلال". راجع شهادة ديريدا عن ذلك فى Casanova 1990.

(٨١) فى عام ١٩٦٠ درس بورديو برنامجا حول "الثقافة الجزائرية" فى جامعة الجزائر. وقد اعتبر ذلك استفزازا من جانب السلطات وجماعات المستوطنين الذين كان بالنسبة لهم مجرد الإقرار **بوجود** شىء من قبيل ثقافة جزائرية معادلا للدعم المكشوف لجبهة التحرير الوطنى. ونجد تأثير الحرب الجزائرية على أداء المجال الثقافى الفرنسى موثقا فى مجموعة (1991) Rioux & Sirinelli .

(٨٢) فى "فيلسوف طامح"، يسترجع بورديو (1991a: 17) الانبهار الذى لا يقاوم تقريبا والذى كان يمارسه النموذج الشامخ للفليسوف على الشباب الذين سيصبحون مثقفين. "كان المرء يصبح "فيلسوفا" لأنه قد تم ترسيمه وكان يجرى ترسيم المرء باستفادته من الهوية البارزة "للفليسوف". كان اختيار الفلسفة تعبيرا عن ضمانة لائحية تدعم ثقة. (أو غرورا) لائحية". وكانت حساسية بورديو إزاء الموضوعات المعرفية هى أيضا نتاج تدريبه فى تاريخ العلم وفلسفته مع كانجيليم وباشلار.

(٨٣) بعد فترة تدريس قصيرة فى السوربون وفى جامعة ليل (التى اعتاد أن يصل إليها بالقطار بينما يستقر فى باريس)، تم تعيين بورديو عام ١٩٦٤، فى سن ٣٤ عاما، فى مدرسة الدراسات العليا فى العلوم الاجتماعية، بتوصية من برودیل، وآرون، وليفى ـ شتراوس (ويحمل الغلاف الخلفى لكتابه الأول بالانجليزية، **الجزائريون The Algerians**، مساندة الاثنين الأخيرين). العنصر المواتى الهام الآخر هو الاستقرار الجغرافى: فالبقاء فى العاصمة قد أتاح لبورديو بناء أداة جماعية للبحث وكذلك مراكمة ارتباطاته الثقافية عبر الزمن وتركيزها، وهى شىء يكون أصعب فى المجال الأكاديمى الأمريكى نظرا للحراك المكانى المرتفع للعلماء الاجتماعيين (والذى يميل إلى الزيادة مع ارتفاع مرتبتهم فى المراتيبة العلمية). لتحليل تاريخى لمدرسة الدراسات العليا فى العلوم الاجتماعية منذ إنشائها وحتى بداية الستينات، راجع Mazon 1988 وتصدير بورديو الموجز (1988j).

(٨٤) بورديو لا "يشارك فى افتراضات فوكوه حول السلطة / المعرفة" كما يزعم لاش (Lash 1990: 255) (راجع نقده لهذه المقولة فى بورديو وفاكان ١٩٩١). وهو يشارك بجماع قلبه فى مشروع العقل التنويرى، رغم قلقة من تساميه: "ضد مناهضة ـ العلمية هذه التى هى موضة العصر والتى تصب الماء فى طواحين الإيديولوجيين ـ الجدد، أدافع عن العلم وحتى عن النظرية حين تفيد فى تقديم فهم أفضل للعالم الاجتماعى. فليس أمام المرء أن يـختار بـين الظـلامية والعلمية. قال كارل كراوز Karl Kraus، أنا أرفض أن أختار الأهون، من بين ضررين" (Bourdieu 1980b : 18). ولمناقشة موحية لعمل بورديو بوصفه "طريقا ثالثا معقولا بين العمومية والخصوصية، بين العقلانية والنسبية، بين الحداثيين وما بعد الحداثيين"، راجع Calhoun 1992.

(٨٥) "يجب طرح مشكلة ما العلم، ذاته. أليس العلم ذاته نشاطا سياسيا وفكرا سياسيا، بقدر ما يغير البشر، ويجعلهم مختلفين عما كانوه من قبل؟" (Gramsci 1971 : 244).

(٨٦) بينما يشارك بورديو فوكوه فى مفهومه الانقطاعى والبنائى للعقلانية وفى فهم تأريخى للمعرفة (راجع تأبينه لفوكوه تحت عنوان "لذة المعرفة" فى صحيفة **لوموند**، فى ٢٧ يوليو ١٩٨٤)، فإنه يرفض تعليقه Epoch لسؤال العلموية. وبينما نجد فوكوه، باعتناقه شكلا من اللا أدريه المعرفية، قانعا بتعليق سؤال المعنى والصدق عن طريق "وضع أقواس مزدوجة متعاقدة" (Dreyfus & Rabinow 1983) حول أسئلة السببية والكلية، فإن بورديو يعيد صياغة هذه الأسئلة بالرجوع إلى أداء المجال العلمى. وهنا، مثلما مع موضوعات الاستراتيجيات "اللاقصدية" أو السلطة، يحدد مفهوم المجال فاصلا عميقا بين بورديو وفوكوه.

(٨٧) "بشكل متناقض، تحررنا السوسيولوجيا بتحريرنا من وهم الحرية، أو، بشكل أدق، من الاعتقاد الخاطىء فى حريات وهمية. الحرية ليست معطى بل فتحا، وفتحا جماعيا. وأجد مما يثير الأسف أن الناس، باسم ليبيدو نرجسى صغير، وبتشجيع نفى غير ناضج للحقائق، يحرمون أنفسهم من أداة تساعد المرء حقا على تأسيس ذاته ـ بدرجة أكبر على الأقل ـ كذات حرة. فى مقابل جهد لإعادة ـ التملك" (Bourdieu 1987a: 26). ومن ثم، فمن المشكوك فيه أن "بورديو يمكن أن يشارك بسرور فى رش حامض التفكيك على الذات التقليدية"، مثلما يؤكد رابينو (Rabinow 1982 : 175).

(٨٨) فى هذه النقطة، يلتقى بورديو من جديد مع إلياس (1978a : 52)، فى أن "العلماء هم مدمرو الأساطير". وبالنسبة لمن يعترضون بأن السوسيولوجيا لا يجب أن تنشغل بنزع زيف الصور المقبولة للمجتمع، يجيب بورديو بأن "خطاب العلم يمكن أن يبدو محررا من السحر فقط بالنسبة لمن لديهم رؤية مسحورة بالعالم الاجتماعى. فهو يقف على مسافة متساوية من النزعة الطوباوية التى تأخذ أمنياتها على أنها واقع ومن الاستحضار المثبط لقوانين مكتسبة للطابع الصنمى" (مقدمة افتتاحية دون عنوان للعدد الافتتاحى من مجلة Actes de la recherche en sciences sociales, 1975,)

(٨٩) ليس السوسيولوجى "نوعا من المحقق الإرهابى، الموجود فى كل عمليات المراقبة البوليسية الرمزية" (Bourdieu 1982a: 8).

(٩٠) يطبق روبرت بيللاه (Robert Bellah 1973: x) هذا التعبير على دوركهايم. وبالنسبة لآلان وولف (1989a : 22 - 23)، "يجب أن تستعيد السوسيولوجيا التقاليد الأخلاقية التى كانت فى قلب التنوير الاسكتلندى.. العلماء الاجتماعيون هم فلاسفة أخلاقيون مقنعون".

(٩١) فمثلا، لكى نضمن أن يعمل السياسيون أو قادة الجماعات عموما سعيا وراء مصلحة جماعية، لابد لنا أن "نؤسس عوالم اجتماعية، مثلما فى الجمهورية المثالية لدى ماكيافيللى، يكون للفاعلين فيها مصلحة فى الفضيلة والنزاهة، فى التكريس للصالح العام، وللمصلحة العامة". فى السياسة مثلما فى العلم، "أمام الأخلاق فرصة للتحقق إذا عملنا على خلق الوسائل المؤسسية لسياسة أخلاقية"(Bourdieu Forthcoming b : 7).

(٩٢) يعتقد بورديو (1977a: 165) أنه حتى الابستمولوجيا سياسية أساسا: "نظرية المعرفة هى بعد من أبعاد النظرية السياسية لأن السلطة الرمزية النوعية لفرض مبادىء بناء الواقع ـ خصوصا الواقع الاجتماعى ـ هى بعد رئيسى للسلطة السياسية". وبصياغة أخرى: "نظرية المعرفة والنظرية السياسية لا ينفصلان: فكل نظرية سياسية تتضمن، على الأقل ضمنيا، نظرية فى إدراك العالم الاجتماعى المنظم طبقا لتعارضات شديدة الشبه بتلك التى يمكن أن نجدها فى نظرية العالم الطبيعى" (Bourdieu 1980b: 86 ترجمتى).

(٩٣) "بوصفها علما يعمل على كشف قوانين إنتاج العلم، فإن [السوسيولوجيا لاتقدم أدوات السيطرة بل ربما أدوات للسيطرة على السيطرة". (ترجمتى, Bourdieu 1980b : 49).

(٩٤) يلاحظ جون طومسون (John Thompson 1991 : 31) أن: "بورديو، بوصفه عالما اجتماعيا أولا وقبل كل شىء، نادرا ما ينخرط فى النظرية السياسية المعيارية، كذلك فإنه لا يسعى إلى صياغة برامج سياسية أو سياسات لجماعات اجتماعية معينة. إلا أن فضحه الذى لا يلين للسلطة والتميز فى أشد أشكالها تنوعا ورقيا، والاحترام الذى يوليه إطاره النظرى للفاعلين الذين يشكلون العالم الاجتماعى الذى يشرحه هو بكل هذه الحدة، يمنحان عمله طاقة نقدية ضمنية".

(٩٥) يقدم تيرنر (Turner 1990) بورديو لجمهور بريطانى على أنه "العميد الحالى للنقد الاجتماعى اليسارى ـ المتشدد ومعارض عنيف لنظام النجوم بين (فلاسفة) القارة".

(٩٦) للرجوع إلى مسح للانخراطات السياسية للمثقفين الفرنسيين منذ الحرب العالمية الثانية والدور الرئيسى للعرائض فيها، راجع (Ory & Sirinelli 1986: Chaps. 8 - 10).

(٩٧) راجع تذكير بورديو بالمواقف السياسية لصياد Sayad فى حرب الجزائر (التى كان هو يشارك فيها) فى تصديره لكتاب الأخير L immigration, ou les Paradoxes de l alt rit (الهجرة، أو تناقضات الآخرية Sayad 1991) .

(٩٨) يتذكر بورديو (1987a : 13) أن "الضغط الستالينى كان خانقا لدرجة أننا أقمنا، حوالى عام ١٩٥١، مع بيانكو، وكومت، وماران، وباريينت، وآخرين، لجنة للدفاع عن الحريات شجبها لوروا لا دورى Le Roy Ladurie فى الخلية [الشيوعية] للمدرسة".

(٩٩) كان غلاف كتابه الأول، **الجزائريون** (١٩٦٢)، المنشور فى الولايات المتحدة فى دار بيكون بريس، يحمل علم جمهورية الجزائر التى لم تكن قد تشكلت بعد.

(١٠٠) راجع بوجه خاص الرسم البيانى الذى يقابل بين إيديولوجيا وسوسيولوجيا الوسط الطلابى فى (Bourdieu & Passeron 1979: 52). كذلك كتب بورديو مسودة البيان المعروف الوحيد للأساتذة الذى يأخذ جانب حركة مايو، بينما هو يطالب فى الوقت نفسه بإجراءات لمواجهة النزعة الطوباوية للمطالب الطلابية (راجع، Les id es de mai, 1978).

(١٠١) بعد كتابه مسودة "تقرير الكوليج دوفرانس حول مستقبل التربية" (Bourdieu 1990g) الذى وجه برنامج ميتران الرئاسى بصدد التربية فى ١٩٨٨، والذى ناقشه مع عدد من النقابات فى مختلف بلدان أوربا، وافق بورديو على تشكيل فريق مع البيولوجى فرانسوا جروس Fran ois Gros لرئاسة "لجنة إصلاح محتويات التربية" المكلفة بأن تصبح رأس حربة للإصلاح الطويل ـ المدى للمدارس والذى كان المشروع الأثير حينئذ لإدارة روكار الاشتراكية. كذلك ساند إصلاحا للهجاء كان مصطبغا بقوة بالطابع السياسى وكان دوره حاسما فى إقامة قناة تليفزيون ثقافية، أوربية، مملوكة ملكية عامة (عهد بإدارتها إلى زميله مؤرخ العصور الوسطى جورج دوبى Georges Duby) وكان نشيطا فى جماعة الضغط من أجل حظر الدعاية فى التليفزيون العام.

(١٠٢) راجع بورديو (1991c). وراجع (Eribon 1989: 316 24) لتقرير مفصل عن حملة العرائض المدوية تلك والسلسة التالية من التظاهرات لصالح نقابة تضامن [سوليدارنو، البولندية ـ م] ومقالة بورديو (1981e, also, 1985e) فى صحيفة ليبراسيون Lib ration وعنوانها بشكل مناسب هو "إستعادة التقاليد الليبرتارية لليسار". التى يطالب فيها بالاعتراف المؤسسى "بالتيار ضد ـ المؤسسى" للحياة السياسية الفرنسية الذى ولد من مايو ١٩٦٨ (أى البيئة، والنسوية، ونقد السلطة، إلخ). ومؤخرا، إتخذ بورديو علنا موقفا من الحرب العراقية ("ضد الحرب"، مقال وقعه مع ٨٠ آخرين من المثقفين الفرنسيين والعرب، **ليبيراسيون**، عدد ٢١ فبراير، ١٩٩١) ومن التضامن والهجرة فى صحيفة **دى تاجزتساينونج** Die Tageszeitung (حوار فى ١٣ أبريل ١٩٩٠). ولعينة أوسع من مواقفه وفكره حول دور السوسيولوجيا فى السياسة والأمور الجارية، راجع Bourdieu 1986d, 1987e, 1988g, 1988h, 1989d; and Bourdieu, Casanova, & Simon 1975.

(١٠٣) ظهرت **ليبر** كملحق لكبرى الصحف القومية فى فرنسا، وإيطاليا، وبريطانيا العظمى، وإسبانيا، والبرتغال، وألمانيا منذ ١٩٨٩؛ ويتألف مجلس تحريرها من مثقفين بارزين من هذه الدول، ورئيس تحريرها هو بورديو.

(١٠٤) الافتتاحية الاستهلالية غير المنشودة لبورديو. وهذه هى الطريقة التى يشرح بها غرض **ليبر** لجمهور بريطانى (أورده Turner 1990) "المثقفون لا يخلقون أبدا حركات سياسية لكنهم يستطيعون ويجب أن يعانوا. بإمكانهم منح سلطة، واستثمار رأسمالهم الثقافى إنهم عموما لا يفعلون ذلك فى هذه الأيام. والعقول الصالحة يخيفها الاعلام وتختبىء فى أكاديمياتها. وقد استولى على المنابر العامة أنصاف ـ المثقفين ـ مثل ما بعد

الحداثيين ـ الذين يخترعون معارك مشحونة ومشكلات زائفة تضيع وقت الجميع. وفكرة ليبر خلق فضاء مأمون لإغراء العقول الصالحة للخروج من اختبائها والعودة إلى العالم من جديد. يميل المثقفون إلى المبالغة فى تقدير قدراتهم كأفراد وإلى التقليل من قيمة السلطة التى قد تكون لهم كطبقة. وليبر هى محاولة لربط المثقفين معا كقوة مكافحة".

(١٠٥) بين الحين والآخر مثلت أعداد **وقائع البحث فى العلوم الاجتماعية** تدخلات ثقافية ـ سياسية: مثلا، عدد مارس ١٩٨٦ عن "العلم والشئون الراهنة"، اشتمل على مقالات عن الأسس الاجتماعية لحركة تضامن فى بولندا، وانتفاضة الكاناك التى تهز المجتمع الاستعمارى فى كاليدونيا الجديدة، والسيخ فى التاريخ والسياسة الهنديين، والهجرة العربية فى فرنسا. وتناول عدد نوفمبر ١٩٩٠ حول "سقوط اللينينية" التحولات الدائرة فى شرق أوربا. أما أعداد مارس ويونيو ١٩٨٨ ("التفكير فى السياسى")، اللذان جاءا بين الانتخابات الرئاسية والانتخابات التشريعية الفرنسية فى ربيع ١٩٨٨، فقد تضمنا نزع الأوهام بصدد التقديم ـ الذاتى لشيراك وفابيوس (وهما عندها رئيس الوزراء الحالى والسابق مباشرة، ولأعضاء بارزين فى التجمع المحافظ من أجل الجمهورية وفى الأحزاب الاشتراكية على الترتيب) وبصدد (إساءات) استخدام عمليات استطلاع الرأى والتليفزيون من جانب السياسيين.

(١٠٦) ويتضح ذلك فى نهاية هذا التأبين، حيث يصرح بورديو (1987m : 170, 167) بأننا "لابد لنا أن نؤمن بحسم بالفضائل المحررة للعقل العلمى كما يمثله موريس هالبفاخس "قبل أن نلتزم بمواصلة "مشروعه العلمى".